دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

استخلاف الإنسان في الأرض

دكتور فاروق أحمد دسوقي
أستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية المساعد
بجامعة الملك سعود

□ هـــــذا الكتاب :

● الخليفة عبد وسيد فى آن واحد ، عبد لمن استخلفه وسيد على من هو مستخلف عليه . ذلك هــو الانســـان . ومن ثم يجب ان ننبه الى ان العبودية والسيادة وجهان لحقيقة واحدة هى الخــلافة ، وهمــا قائمان كشىء واحد فى الذات الانسانية ولا يمكن الفصل بينهما فى الذهن للدراسة والتوضيح فقط . اما فى عالم الواقع فان الانسان لا يمكنه اقامة احداهما دون الاخرى .

● واذا لم يحقق الانسان عبوديته لله فانه يضيع سيادته فى الارض ، لانه اذا لم يحقق عبوديته لله وحده ، فانه سيسقط بالضرورة فى عبوديته لغير الله ، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير ، واذا لم يحقق الانسان ســيادته على كل شىء وحتى فى الارض ، فانه بالتالى يصعب عليه ان يكون عبدا لله عــز وجل .

د. فاروق احمد دسوقى

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

دار الدعــوة
للطبع والنشر والتوزيــع

استخلاف الإنسان في الأرض

دكتور فاروق أحمد دسوقي
أستاذ مساعد العقيدة والثقافة الإسلامية
جامعة الملك سعود

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك (الإسكندرية

(١) استخلاف الله للانسان فى الارض

قال الله عز وجل (واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الارض خليفة، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : انى أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم ، انى أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟• واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين — الآيات من ٣٠—٣٤ سورة البقرة) •

ويستنبط من هذه الآيات الكريمة المفاهيم الآتية :

أولا — قول الله عز وجل « انى جاعل فى الارض خليفة » يفيد أن هذا الكائن المختار للخلافة ليس مخيرا فى أن يكون خليفة أو لا يكون ، بل هو خليفة بمقتضى « الجعل » الالهى ، أى أنه خليفة بمقتضى الخلقة والجبلة والفطرة •

ثانيا — هذا الكائن هو الانسان ، وذلك بالرغم من أن الانسان لا يسكن الارض وحده ، ففيها الجن ، وهو نوع من الخلق مبتلى ومكلف بالعبادة كالانسان ، ولكنه ليس مخلوقا لخلافة الارض ، ومن ثم يتميز الانس عن الجن بالخلافة حتى فى حالة قيام كل منهما بطاعة الله وعبادته •

ثالثا — تعجب الملائكة من جعل الله عز وجل الانسان خليفة ، واقترن هذا التعجب بأمر كتموه فى أنفسهم ، وهو أحقيتهم بالخلافة أكثر من

الانسان ، بسبب عدم علمهم بحقيقة الخلافة ، وظنهم أن مؤهل استحقاق الخلافة يكمن فى تحقيق العبودية لله عز وجل وطاعته فقـــط ، وحيث انهم لا يفعلون الشر والفساد كالانسان ، وهم بذلك أكثر تحقيقا لعبوديتهم لله من الانسان ، فقد ظنوا فى أنفسهم جدارة واستحقاقا ، وانهم أولى بهـــا من الانسان ، وهذا واضح من قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟) •

فبين الله عز وجل لهم ، أنه يعلم ما لا يعلمون ، ولعل الذى لم تعلمه الملائكة عن حقيقة الخلافة هو أن الخلافة ليست عبودية فقط ، وانما هى عبودية وأمر آخر زائد عن العبودية أو انها عبـــودية لله ، تختلف من حيث الظروف والاحوال والاهداف والنتائج عن عبودية الملائكة وسائر المخلوقات لله عز وجل ، ومن ثم ابطل الله تعجبهم بتعليم آدم الاسماء التى أقروا بعدم معرفتهم لها ، بينما أنبأهم آدم بها ، ومن ثم ثبت لهم أن الله عز وجل قـــد زود آدم بمؤهل الخلافة الذى لم يزودوا به • وبذلك يدخل علم الاسماء كمقوم رئيسى من مقومات الخلافة ، بل يصبح هو جوهر الخلافة •

واقرار الملائكة بعدم معرفة الاسماء ، يتضمن اقرار الجن ممثلا فى ابليس بعدم معرفتها أيضا ، حيث كان معهم أبليس ــ وهو من الجن ــ كما أخبرنا الله عز وجل •

ومعنى هذا أن الانسان يتميز عن الملائكة والجن معا بعلم الاسماء ، وهذا العلم هو سر تفضيل الانسان وتميزه عليهما ، وهو مؤهل الخـــلافة وجـــوهرها •

رابعا ــ التعبير عن المعلومات التى تلقاها آدم وتعلمها من الله عز وجل « بالاسماء كلها » يفيد عدة نتائج :

(أ) ليست الاسماء هى أسماء الله الحسنى ــ كما يظن البعض ــ ، وليست أيضا أسماء الملائكة ، كما يذكر آخــرون • لان ســياق الآيات ، وقواعد اللغة العربية لا يجيزان هذين القولين ، فقوله تعالى (ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) يعنى أن الله عز وجل لم يعرض الاسماء على الملائكة ، وانما عرض المسميات ، لان عرض الاسماء يقتضى لغويا القول « ثم عرضها » ولان اسم الاشارة الخــاص بالجمع « هؤلاء » يدل على أن المعــروض كان المسميات وليس الاسماء ، هذا بالاضافة الى قوله تعالى « ثم عرضهم » وليس « ثم عرضها » ، ومن ثم يكون المطلوب من الملائكة ــ بداهة ــ الانباء بالاسماء حيث المعروض هــو المسميات •

هذا كله لا يجيز مطلقا أن يكون المقصود بالاسماء كلها أسماء الله عز وجل أو أسماء الملائكة ، فلم يبق الا أن تكون أسماء الاشياء •

ولمــا كان سياق الآيات وموضوعها هو خلافة الانسان فى الارض ، يكون من الارجح أن المقصود بالاشــياء المعروضــة هى الاشــياء التى يستخدمها الانسان فى الارض •

وحيث أن الله عز وجل قال « الاسماء كلها » ، وحيث أن الخــلافة فى الآيات أمر يخص الانسان كنوع ، وليس يخص آدم كنفس أو كفرد ، بل باعتباره ممثلا لنوعه ، فان المقصود « بالاسماء كلها » فى الاية ، هو الالفاظ التى يطلقها الانسان فى حياته الدنيا منذ خلقــه الى يوم القيامة ، لتمييز الاشياء بعضها عن بعض ، ومن ثم تكون المعــروضات التى عــرضت على الملائكة ، فلم ستطيعوا أن يعرفوا أسماءها ، هى نماذج للاشياء والاحياء التى يستخدمها الانسان فى حياته الدنيا التى هى مدة الخلافة ، سواء كانت حيوانات أو نباتات أو جمادات طبيعية أو مصنوعات أو مخترعات ، وذلك

منذ آدم الى أن يرث الله الدنيا وما عليها • يدخل فى ذلك خصائص هـذه الاشياء وعناصرها وكيفياتها وسائر صفاتها ، لان هذه الخصائص والصفات والعناصر والكيفيات هى أيضا أشياء تحمل أسماء •

(ب) يؤكد تفسير الاسماء بهذا المعنى ارتباط الخلافة — كغاية عليا للانسان — أوثق الارتباط بعلم الانسان بالاشياء والاحياء وخصائصهما ، كما أنه يستبعد أن يكون علم الاسماء من اختصاص المعرفة الدينية التى تهدف الى تحقيق عبودية الانسان • والادلة على صحة هذه النتيجة :

١ — أن الاسماء ليست أسماء الله عز وجل ، فلو كانت أسماء الله عز وجل لكان هذا العلم فى مجال المعرفة الدينية •

٢ — عدم معرفة الملائكة للاسماء — وهم المسبحون والمقدسون لله — يبعد هذا العلم عن مجال المعرفة الدينية أيضا •

٣ — انتهاء تعجب الملائكة من جعل الانسان خليفة فى الارض بعد أن أنبأهم آدم بأسماء المعروضات ، يربط هذا العلم بالارض بما فيها وما عليها من أشياء وأحياء ، ويجعل هذا العلم خاص بمجال آخر غير مجال تحقيق العبودية لله عز وجل •

(ج) التعبير عن المعلومات التى تلقاها آدم « بالاسماء » يفيد أن الله عز وجل علم آدم خصائص الاشياء وصفاتها وأعراضها ولم يعلمه حقائق الاشياء وجواهرها وماهياتها • لان الاسم لفظ يطلق على شىء لتمييزه عن الاشياء الاخرى ، فلكل شىء اسمه ، وهو عادة ما يدل على صفة من صفاته أو خاصية من خصائصه باعتبار أن الاسم ليس سوى علامة صوتية أو مصطلحا لفظيا دالا على المسمى •

وكما أن لكل صفة أو خاصية من خصائص الشيء الواحد اسم يميزها أيضا عن غيرها من الخصائص ، كذلك لكل عنصر أو عضو أو جزء من أجزائه اسم يميزه عن سائر الاعضاء والعناصر والاجزاء .

وعلى هذا فمعرفة آدم بالشيء — وكذا سائر الناس — لا تتعدى الخصائص والصفات والعوارض والكيفيات ، وكذلك لا يعرف الانسان حقيقة أو جوهر الخاصية ، وانما يعرف اسمها فقط ، فاذا أراد أن يعرف شيئا عمد الى تحليله الى عناصره وخصائصه ومكوناته ، ولكنه ينتهى — فى الحقيقة — الى معرفة أسماء العناصر والمكونات والخصائص لا الى حقيقة هذه العناصر . فاذا أراد أن يعرف الخاصية أو العنصر الواحد عمد الى تحليله ليصل فى النهاية أيضا الى معرفة عناصره ، ولكنه لا يعرى من كل عنصر من هذه العناصر الا اسمه ، وخصائصه التى لا يعلم عنها الا اسم كل منها ، فاذا أراد أن يعرف كل منها عمد الى تحليل كل منها ليصل فى النهاية أيضا الى عناصرها الجديدة التى هى بالنسبة له — ليست شيئا سوى أسماء — وهكذا . فمعرفة الانسان للاشياء تتمثل فى معرفته لخصائصها وعناصرها متمثلة فى أسمائها وفى التفاعلات والتأثيرات بين هذه الخصائص والعناصر ، ولما كانت للتأثيرات والتفاعلات بين الاشياء لقال « وعلم آدم الاشياء » ولكنه عز وجل قال « وعلم آدم الاسماء » كما علمه الله عز وجل ، وكما أخبرنا عن ذلك فى القرآن الكريم .

يدل على ذلك أن الله عز وجل ، لو علم آدم حقيقة الشيء وجوهره لقال « وعلم آدم الاشياء » ولكنه عز وجل قال « وعلم آدام الاسماء » فثبت قصر علم الانسان على الخصائص دون الحقائق .

خامسا — ليس أمر الله عز وجل بسجود الملائكة — بما فيهم الجن

ممثلين فى ابليس — أمرا بعبادة آدم • وانما هو بمثابة الاقرار والاعتراف لآدم بالخلافة فى الارض •

ولكن — مما لا شك فيه — أن التعبير عن الاقرار والاعتراف بالسجود يتضمن تفضيل المسجود له على الساجد ، ومن ثم فالخلافة درجة وجودية عليا بين المخلوقات ، ومركز كونى سامى ومرموق بينهم ، اصطفى الله الانسان له من دونهم جميعا • يدل على هذا أيضا — بالاضافة الى أمر الله للملائكة بالسجود — استشرافهم لهذا المركز الوجودى والمكانة العليا ، وان كتموا هذا فى نفوسهم ، ويدل على هذا أيضا ، حقد ابليس وحسده للانسان بسبب هذا التفضيل ، ورفضه — لعنه الله — السجود ، أى الاقرار والاعتراف للانسان بهذا الفضل •

وليس يعنى السجود مجرد الاقرار والاعتراف فقط بخلافة الانسان فى الارض ، وانما يعنى أيضا ويتبعه عمل يتعلق بمساعدة الانسان على تحقيق الخلافة ، فالملائكة وهم جنود الله عز وجل فى السماوات والارض ، مجندون بمقتضى السجود لآدم — لمساعدة الانسان لتحقيق غلبة وجوده العليا فى هذه الحياة الدنيا المتمثلة فى الخلافة •

ويستتبع هذا المعنى لسجود الملائكة ، معنى آخر وهو أن رفض ابليس وابائه السجود لآدم ، معناه توجيه فاعليته وامكاناته ونشاطه هو وجنوده نحو هدف محدد هو منع الانسان من تحقيق خلافته لله فى الارض •

لقد سخر الله عز وجل النواميس الكونية والطبيعية بحيث تلتقى غايات المخلوقات جميعا وأهدافها لتحقيق غاية الانسان •

سخر الله عز وجل للانسان الشمس والقمر والنجوم والبحار والانهار والنبات والاحياء والمعادن والارض وكل ما على الارض من عناصر وكل

ما تحت الثرى من ثروات ، سخر كل ذلك وجعله جميعا قابلا لتأثير الانسان وفاعليته بحيث يتمكن الانسان من تحقيق خلافته • ولم يبق بعد خلق آدم الا تجنيد الملائكة لهذه الغاية الانسانية ، فكان اخبار الله عز وجل لهم ، بأنه جعل الانسان خليفة فى الارض ثم كان الحوار الذى دار بين الله عز وجل وبينهم ، والذى انتهى بابطال تعجبهم ثم أمر الله لهم بالسجود لآدم • ومن ثم كان هذا الامر بمثابة دخول الملائكة مع بقية المخلوقات — بمشيئة الله — كعمال وموجهين لفاعليتهم — التى هى فاعلية الله عز وجل لمساعدة الانسان لتحقيق هدفه فى الحياة •

وهكذا أصبح موقف الانسان الوجودى بالنسبة لغايته العليا بين تأثيرين ، الاول تأثير الملائكة الذين ينفذ الله بهم مشيئته فى حياة الانسان، فيساعدونه ويأخذون بيده نحو تحقيق الغاية التى خلق من أجلها ومع الملائكة فى هذا الموقف نواميس الكون ، وقوانين الطبيعة ، وخصائص الاشياء والاحياء فى الارض ، هذا من ناحية ، والثانى تأثير الشياطين من الانس والجن ، جنود ابليس الذين يعملون جاهدين فى محاولة منع الناس من الوصول الى هذا الهدف ، أو فى محاولة تحريف اتجاههم عنه .

الخلافة عبودية وسيادة :

الخلافة لغة هى النيابة والوكالة ، وعندما تتم النيابة والوكالة بين اثنين من الناس مثلا فانها تتطلب — لكى تقوم — عدة عناصر رئيسية هى :

١ — الموكل •

٢ — الوكيل •

٣ — الموكل فيه أو عليه •

٤ — شروط الوكالة •

٥ ـ مـــدة الوكالة .

٦ ـ الحســاب فى نهاية الوكالة .

هذه العلاقات الموجودة فى الوكالة موجودة أيضا فى حقيقة الخلافة :

١ ـ المستخلف (بكسر اللام) وهو الله عز وجل .

٢ ـ المستخلف (بفتح اللام) وهو الانسان .

٣ ـ المستخلف فيه (بفتح اللام) وهو الارض وما فيها .

٤ ـ شروط الخلافة وهى التكليف أو الرسالة السماوية أو الشريعة وأصل هذه الشروط جميعا الطاعة .

٥ ـ مدة الخلافة : الحياة الدنيا بدءا بآدم عليه السلام الى قيــام الســـاعة .

٦ ـ الحســاب : هو يوم الدين .

ومن ثم فالخلافة ـ كالوكالة أو النيابة ـ تعبير عن علاقة بين الانسان (المستخلف « بفتح اللام ») وبين الله عز وجل الذى استخلفه من جهــة وهى أيضا تعبير عن علاقة أخرى بين الانسان الخليفة وبين كل ما استخلفه الله فى الارض من جهة أخرى .

والعلاقة الاولى ، التى هى بين الانسان وبين ربه ، ذات طبيعة خاصة ومختلفة عن العلاقة الثانية التى لها طبيعتها الخاصة أيضا ، هذه العــلاقة التى تقوم بين الانسان وبين ما ســوى الانســان من أشــياء واحياء فى الارض .

أما الاولى فهى تتمثل فى الخضوع والطاعة والاستجابة واستسلام الخليفة لمن استخلفه ، أو هكذا يجب أن تكون ، وبكلمة واحدة نعبر بها عن

هذه العلاقة نقول انها : عبودية ، أما البعد الثانى أو العلاقة الثانيـــة من علاقتى الخلافة ، فانهـــا تتمثل فى ســـيطرة الانســـان الخليفـــة وهيمنته واستغلاله وحاكميته وتسخيره لكل ما استخلفه الله عليه ، أى لـــكل ما فى الارض وما عليها وما فى باطنها من أشياء واحياء وبكلمة واحدة نقول : ان الانسان سيد عليها ، أى أن هذه العلاقة تسمى : ســـيادة • فالخـــلافة : عبودية وسيادة •

والخليفة عبد وسيد فى آن واحد ، عبد لمن استخلفه وسيد على من هو مستخلف عليه • ذلك هو الانسان • ومن ثم يجب أن ننبه الى أن العبودية والسيادة وجهان لحقيقة واحدة هى الخلافة ، وهما قائمان كشىء واحد فى الذات الانسانية ، ولا يمكن الفصل بينهما الا فى الذهن للدراسة والتوضيح فقط ، أما فى عالم الواقع فان الانسان لا يمكنه اقامة احداهما دون الاخرى•

فاذا لم يحقق الانسان عبوديته لله فانه يضيع ســـيادته فى الارض ، لانه اذا لم يحقق عبوديته لله وحده ، فانه سيسقط بالضرورة فى عبـــوديته لغير الله ، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير ، واذا لم يحقق الانســـان سيادته على كل شىء وحى فى الارض ، فانه بالتالى يصعب عليه أن يكون عبدا لله عز وجل وحده • والمثل الواضح على هذا هو الوثنى الذى يتوسل الى الله باحياء أو اشياء مادية ، فان هذا التوسل أو التزلف بها الى الله هو المـــانع الاول والحقيقى لسيادة الانسان عليها ما دام يعتقد انها أفضـــل منه وأقرب الى الله عز وجل ، فكيف يمكنه أن يسخرها لنفســـه ؟• وهـــذا التوسل شرك بالله عز وجل ، ومن ثم فالشرك أو الكفر فقد للسيادة فى نفس الوقت الذى هو فيه فقد للعبودية ، ويعتبر التوحيد تحقيقا للسيادة الذى هو فى نفس الوقت تحقيق لعبودية الله وحده ، لان معنى افراد الله بالعبادة

استعلاء الموحد على كل ما سوى الانسان فى الارض وهذا هو معنى السيادة •

(د) الدين والعلم مقوما الخلافة :

اذا وضعنا هذا السؤال : كيف يحقق الانسان الخلافة ؟ ، بجانب الملاحظة الاولى التى سجلنا فيها أن الجعل يفيد الجبر ، وأن الانسان خليفة بمقتضى الخلقة والجبلة ، يصبح هذا السؤال لا محل ولا لزوم له ، وذلك لان الخلافة ليست أمرا كلف الله به الانسان ، فهو خليفة شاء أو أبى ، وعلى هذا يحق لمعترض أن يقول اننا لسنا فى حاجة للسؤال عن كيفية تحقيق الخلافة ، وهو اعتراض صحيح ومقبول بالنسبة لهذا السؤال بهذه الصيغة، ومن ثم يتعين علينا تصحيح السؤال ليكون كالاتى :

كيف يحقق الانسان خلافته لله فى الارض ؟ وذلك لان آية الخلافة تفيد جعل الانسان خليفة دونتحديد للذى سيكون الانسان خليفة له ، فلم يقل الله عز وجل فى الآية « خليفة لى » ولم يقل سبحانه وتعالى « خليفتى» • ومن ثم فالانسان مخلوق خليفة وفقط • أى أن الجانب الجبرى فى حقيقة الخلافة هو فى كون الانسان خليفة فقط ، أما لمن سيكون الانسان خليفة ؟ هل سيكون لله أو لغير الله ؟ فهذا موكول لارادة الانسان الحرة ، ومفوض لفاعليته ، فقد خلقه الله حرا مختارا ومستطيعا فى أن يجعل خلافته لله أو يجعلها لغير الله ، ومن ثم كانت الخلافة فى الدنيا ابتلائية والخلافة فى الآخرة جزائية •

وبناء على ما تقدم يتعين علينا أن نسأل الآن :

كيف يحقق الانسان خلافته لله فى الارض وكيف يحققها لغير الله عز وجل ؟•

وللاجابة على هذا السؤال نقول :

اذا كانت الخلافة عبودية وسيادة ، فان هذا السؤال يصبح عنـــدنا سؤالين ، الاول هو : كيف يحقق الانسان عبوديته ، وكيف يحققها لغير الله، والثاني هو : كيف يحقق الانسان سيادته فى الارض ؟.

أما بالنسبة للعبودية ، فان الله عز وجل قد خلق الانسان عبدا ، فهو لا يمكن الا أن يكون عبدا ، فكونه عبدا أمر جبرى جبلى لا يستطيع تغييره، بيد أن الله عز وجل جعل عبودية الانسان محل ابتـــلاء له أو هى أســـاس ابتلائه فى هذه الحياة الدنيا فترك له حـــرية اختيار المعبـــود ، فيستطيـــع الانسان أن يصرف عبوديته الى الله وحده فيصبح عبدا لله ، ويستطيع أن يجعل عبوديته لله ولغيره فيصبح مشركا ، ويستطيع أن يجعلهـــا ويصرفها لغير الله فيكون كافرا . ولكنه فى كل الاحوال عبد ، بيد أنه يحـــدد معبوده باختياره فاما أن يكون ــ نتيجة لممارسة هذا الاختيار ــ عبدا لله وحـــده أو عبـــدا لســـواه .

ومعنى هذا أنه ان لم يجعل الانسان عبوديته لله وحده ويقصر العبادة على الله عز وجل ويفرده بها سقط بالضرورة فى عبوديته لغير الله . فليس معنى أن يرفض الانسان عبادة الله انه يتحرر من العبودية ، بل هو يسقط فى عبوديته لغير الله عز وجل ، فتحرر الانسان من العبودية مطلقا مستحيل لانه مخلوق وكل المخلوقين بمقتضى الخلقة عبيد لله ، وينفرد عنهم الانسان بأن الله عز وجل جعل عبوديته محل ابتلاء فلم يخلقه عبدا له وانما خلقـــه عبدا مخيرا فى صرف عبوديته لله ولغيره ، فاذا لم يجعلها الانسان لله وقع بالضرورة فى عبوديته لغيره سواء عبد الهوى أو الشيطان أو الحـــاكم أو المـــال أو الوثن أو أية حالة يكون عليها الطاغوت .

ومن ثم فلا سبيل أمام الانسان لتحرير ذاته من كل هذه المعبودات والطواغيت والاوثان المادية سوى تعبيدها لله وحده •

أما كيفية تحقيق العبودية لله وحده ، فانه بكلمة واحدة : بالدين •

فالتكليف الالهى للانسان هو المنهج القويم الصحيح والوحيد لتحقيق العبودية لله عز وجل ، وعندما نقول الدين فاننا نعنى به الاسلام قال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام ١٩ — آل عمران) •

وحيث أن الانسان لا يعيش كذات منفردة فقط بل هو يعيش كمجتمع أيضا ، ولا غنى لحالة عن الاخرى فان العبودية التى خلق عليها الانسان عبوديتان : الاولى هى العبودية الفردية • والثانية : هى العبودية الاجتماعية ، ومن ثم يتعين على الانسان أن يعبد الله كفرد وأن يعبده كمجتمع •

وحيث أن الحياة الاجتماعية تتمثل فى نسيج العلاقات القائمة بين الافراد والجماعات مضافا اليها المعاملات والانظمة القائمة على هذه العلاقات،فان العبودية الاجتماعية تكمن فى تطبيق هذه الانظمة والمعاملات•

فاذا أراد مجتمع ما تحقيق عبوديته لله ، فيجب على الافراد أن يحققوا عبوديتهم الفردية لله أولا ، ثم عليهم أن يخضعوا فى علاقاتهم ومعاملاتهم وأنظمة ومناهج حياتهم العامة لارادة الله التشريعية •

أما اذا توجه الناس فى مجتمع ما بعبوديتهم الفردية لغير الله ، وخضعوا فى معاملاتهم وعلاقاتهم وأنظمتهم الاجتماعية لشرائع وضعية ومناهج بشرية : برلمانية أو اشتراكية ، أو ماركسية أو غيرها ، فانهم بذلك يكونوا عابدين لغير الله عز وجل ، لانهم يخضعون بهذه المناهج الوضعية لاصحابها ولواضعيها ومن ثم يصبح الانسان فى مثل هذا المجتمع

خليفة لغير الله حيث الاساس فى الخلافة هو العبودية ، ومنهج تحقيق العبودية الفردية فى الاسلام هو الشعائر التعبدية •

ومنهج تحقيق العبودية الاجتماعية هو الشريعة الاسلامية أو النظم الاجتماعية والاسلامية •

أما تحقيق السيادة فيقوم على ركيزتين : الاولى : وهبها الله للانسان فهى ركيزة ذاتية وتتمثل فى الفاعلية الانسانية ، التى تعمل بترشيد من العلوم التجريبية التى تمكن الانسان من توسيع دائرة عمله وتأكيد وترسيخ وتقوية فاعليته ، فعلم الاسماء يدخل مقوما أساسيا فى هذه الركيزة ، لان العلم التجريبى ليس سوى معرفة خصائص الاشياء والقوانين التى تحكم العلاقات والتأثيرات بينها ، فاذا عرف الانسان طبيعة الشىء أو الحى وخصائصه وتأثيره وتأثره بغيره استطاع تسخيره له والانتفاع به وتحقيق سيادته عليه • فالعلم التجريبى هو المؤهل الذاتى المحقق لسيادة الانسان فى الارض •

أما الركيزة الثانية للسيادة فهى كامنة فى طبيعة الاشياء والاحياء الارضية وهى تتمثل فى تسخير الله عز وجل لها • قال تعالى (ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون — ١٠ الاعراف) •

وقال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا — ٧٠ الاسراء) •

وتعدد آيات سورة النحل النعم الالهية على الانسان من تسخير الانعام والجمال والخيل والبغال والحمير والمطر والنبات والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحار يأكل من احيائها لحما طريا ويستخرج منه الحلى ويركب فوقه الفلك ثم يعقب جل جلاله •

(٢) الخلافة والتوحيد

اذا قلنا : أن لا اله الا الله محمد رسول الله أو عقيدة التوحيد هى مبدأ الاسلام وأصله ، فما هى غايته ومنتهاه ؟

وبتعبير أكثر وضوحا نقول : اذا كان اسلام الانسان : فردا كان أو مجتمعا يبدأ بشهادة التوحيد ، بحيث تكون كلمة التوحيد هى الاساس والاصل الذى يقوم عليه الوجود الاسلامى والمشاعر الاسلامية والانظمة الاسلامية والاهداف الاسلامية ، فما هى الغاية القصوى للانسان فى الاسلام ؟.

والذى نعنيه بالغاية القصوى أنها ليست الاهداف القريبة أو الوسطى التى ترمى اليها الشريعة الاسلامية التى منها حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال . ذلك أن الاهداف أو الغايات والوسائل ثلاثة أنواع :

النوع الاول : ما هو وسائل محضة وهذه ليست أهدافا لغيرها .

النوع الثانى : ما هو وسائل لغيرها من الاهداف وفى نفس الوقت هى أهداف تتحقق بغيرها من الوسائل .

النوع الثالث : ما هو غايات نهائية وليست وسائل ترمى الى غايات أعلى .

والسؤال هنا عن الغاية القصوى فى الاسلام تلك التى ليست فى ذاتها وسيلة لغاية أعلى ، فهى غاية الغايات ومنتهى طلبات وطموحات الانسان ولا شك أن أهداف الشريعة الخمسة المذكورة آنفا بما فيها حفظ الدين كلها

أهداف سامية ولكنها جميعا وسائل ترمى الى أهداف أبعد أو الى هـدف أسمى وأعلى للوجـود الانسانى كله •

كذلك لا يمكن أن تكون غاية الغايات الانسانية جزئية ، أو تكون هدفا محدودا لفئة محدودة من الناس ، أو مرتبطة بعصر معين أو بيئة محددة ، بل يجب أن تكون غاية الغايات الانسانية كلية مطلقة ، يتطلع ويطمح اليها الانسان كنوع من الخلق فى كل زمان ومكان •

بل ان الامر ليصل الى ما هو أبعد من ذلك ، لانه اذا كان الوجـود الانسانى أبدى لا ينتهى ، وذلك بابقاء الله عز وجل للانسان بعـد البعث خالدا ، فمعنى هذا أن غاية الغايات الانسانية هى غاية وجـودية ، وليست مجرد غاية حياتية ، أى أنها ليست الغاية العليا للانسان فى حياته الدنيـا فقط • بل هى غاية عليا لحياته الدنيوية ولحياته الاخروية معا •

فهى غاية أبدية مطلقة للوجود الانسانى كله • فما هى اذن ؟•

الخلافة هى غاية الانسان الابدية المطلقة لوجوده كله : الدنيـوى والاخروى على السواء ؟•

وهنا تبرز الى الذهن بعض الاعتراضات على هذه الاجابة ؟ كيـف تكون الخلافة هى الغاية الابدية المطلقة للانسان ، وقد جعله الله خليفة فى الارض ؟•

كيف تتعدى الخلافة الحدود الزمانية للحياة الدنيا وقـد حـدد الله خلافته بعمر الارض ؟•

وكيف ــ وهذا هو الاهم ــ يكون فى الاسلام غاية غير التوحيـد ، وقد سلمنا ابتداء أن التوحيد هو أصل وأساس حياة الانسان فى الاسلام وغايته ومنتهاه ؟ •

نعم : عندما نقول ان الخلافة لله فى الارض هى الغـاية القصـوى والابدية والمطلقة ، فانه يحق لكل مسلم يعرف مبـادىء الاسـلام ، عالم بأصوله ودقائقه ، قارىء للقرآن والسنة ، نقول يحق له أن يسأل : وهـل للانسان فى الاسلام أسمى من التوحيد هدفا لحياته ؟ وهل يتمنى كل مسلم الا أن يعيش بكلمة التوحيد ويموت عليها وفى سبيل اعلائها ، ان شـعار المسلمين هو : لا اله الا الله محمد رسول الله ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله .

كلمة التوحيد اذن هى الاساس والاصل من ناحية ، وهى غاية الغايات ومنتهى الطلبات من ناحية أخرى .

هى المبدأ والمنتهى وما بينهما أيضا .

فالتوحيد هو العقيدة الاسلامية فى الالوهيـة والكون والحيـاة . والشريعة الاسلامية هى التطبيق العملى للتوحيد الاسلامى .

فالتوحيد ليس مجرد كلمة يخفق لها قلب المؤمن وينطق بها لسـانه فقط ، بل هو منهج عملى للحياة الانسانية متمثل فى شريعة الله عز وجـل . والتوحيد هو الغاية التى تهدف الشريعة الربانيـة أن تحققهـا للانسـان الملتزم بها ، مع العلم أنه أساسها . فاذا كان التوحيد كذلك ، فكيف نقول أن الخلافة هى الغاية الاسمى ؟ وما هى علاقة الخلافة بالتوحيد ؟ وأخيرا ما هو الرد على الاعتراضات المذكورة آنفا ، على اعتبار الخلافة غاية أبدية للانسان وقد حدد الله مجالها بالارض ؟.

ونبدأ أولا ببيان علاقة الخلافة بالتوحيد والتأكيد على أن الخلافة هى غاية الغايات الانسانية .

فالحقيقة التى يجب أن نعمقها ونؤكدها هنا بالنسبة للخلافة هى أن الخلافة حقيقة انسانية : وجودية ومعرفية فى آن واحد ، وهـذا القـول

يتوازى مع القول بأن التوحيد حقيقة الهية : وجودية ومعرفية فى آن واحد أيضا • هما حقيقتان متوازيتان وليستا متقابلتين • ولا يمكن أن تتعارضا أبدا •

ولبيان هذا القول نقول : انه اذا كان من المعلوم بداهة لجميع المسلمين أن التوحيد هو افراد الله عز وجل بذاته العلية وأسمائه الحسنى وصفاته الاسنى وأفعاله وتدبيره ، وبتعبير آخر هو معرفة الله عز وجل كما عرفنا بنفسه فى كتابه وسنة نبيه ﷺ ، نقول انه اذا كان هذا معلوما للجميع، فانه مما قد يخفى على كثير من المسلمين أن من تمام توحيد المسلم وسلامة عقيدته وجوب ايمانه بالمخلوقات بعامة ، والانسان بخاصة ، حسب ما جاء عنهم فى القرآن والسنة ، ومعرفة الكون والحياة والانسان معرفة قرآنية خالصة ••

وبتعبير آخر نقول : أنه كما يستوجب التوحيد الاسلامى أن تكون عقيدة المسلم فى الخالق عز وجل قرآنية ، فانه يستوجب أن تكون عقيدته فى المخلوق قرآنية كذلك حتى يمكن القول باطمئنان : أن من يرفض تفسير القرآن لاصل الانسان وهدفه ومصيره ، ويستبدل به تفسيرا وضعيا آخر، مع علمه بالتفسير القرآنى ، بلا شك يكون كافرا ، ليس هذا بشأن تفسير الانسان فقط • بل ان الكفر يلحق به اذا جحد مجرد حقيقة جزئية من الحقائق الكونية التى يثبتها الله عز وجل فى القرآن بقول محكم الدلالة •

وبناء عليه فان الخلافة — وان كانت حقيقة انسانية — الا أنها حقيقة من حقائق التوحيد لا يتم الا بها •

فهى من ناحية تمثل الغاية القصوى للوجود الانسانى فى الاسلام ، كما أنها من ناحية أخرى تمثل التوحيد ، ولكن ليس كحقيقة الهية ، بل كحقيقة انسانية •

فقولنا : لا اله الا الله ، تعبير عن حقيقة الكون الكبرى ، أو حقيقة الحقائق الكونية .

وقولنا : الانسان خليفة الله ، تعبير عن حقيقة الانسان فى علاقته بالله عز وجل ، وفى علاقته بالكون . فحقيقة الخلافة جزء من التوحيد الاسلامى لا تنفصل عنه ، هذا من الناحية الاعتقادية .

أما من الناحية العملية ، فان تحقيق التوحيد فى الحياة الانسانية ، يقتضى اعتبار خلافة الانسان لله فى الارض غاية تسعى ، وهدفا أسمى للحياة الفردية والاجتماعية ، والا لما أصبح الانسان موحدا : فردا كان أم مجتمعا .

كذلك يستلزم تحقيق خلافة الانسان لله فى الارض تأسيس الحياة الانسانية على التوحيد ، بانبثاق الاخلاق وأنظمة الحكم والتربية والاسرة والاقتصاد وكل تشريع وكل قرار وكل تخطيط من عقيدة التوحيد ، هذا ، والا لما صار الانسان خليفة لله فى الارض .

وبيان ذلك يكمن فى توضيح بعض حقائق التوحيد والخلافة لله من ناحية ، وحقيقة الشرك والكفر والخلافة لغير الله عز وجل من ناحية أخرى:

التوحيد افراد الله عز وجل بالالوهية والربوبية ، وهذا يقتضى من الانسان الموحد أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا ، أى يستلزم منه أن يصرف ما جبل عليه من عبودية فطرية لله وحده ، ويمنع هذه العبودية — التى جبله الله عليها — أن ينصرف منها شىء لغير الله عز وجل .

والخلافة تحديد لمركز الانسان الوجودى بين المخلوقات ، أو هى تحديد وتعيين دقيق لمكانته ودرجته الوجودية فى الكون .

ذلك أن الله عز وجل قد شاء سبحانه أن تكون المخلوقات متفاضلة فيما بينها ، مع أنها جميعا عبيد لله عز وجل ، الا أنها مع ذلك درجات بعضها فوق بعض •

فالعناصر المادية متفاضلة فيما بينها ، والاحياء متفاضلون فيما بينهم أجناسا ، وكل جنس يضم أنواعا متفاضلة ، وكل نوع يضم أصنافا محكومة أيضا بنسبة التفاضل ، وهكذا يمكن تصنيف أجناس وأنواع وأصناف — بل وأفراد المخلوقات — تصنيفا تنازليا أو تصاعديا •

فالعناصر المادية كثيرة ومتفاضلة فيما بينها • ولكن أفضلها هو أقل درجة من أدنى مراتب النبات ، وأعلى مراتب النبات أقل درجة من أدنى مراتب الحيوان ، والجن والملائكة والانس كائنات عاقلة يفضلها جميعا الانسان • فالترتيب التصاعدى يجعل الانسان على قمة الترتيب الوجودى للمخلوقات • وهذا معنى من معانى الخلافة •

قلنا أن خلافة الانسان لله فى الارض ، عبودية لله عز وجل وحده وسيادة على كل ما فى الارض من أشياء وأحياء ومعنى هذا أن الله عز وجل عندما جعل الانسان خليفة ، فانه قد جعله بذلك عبدا وجعله سيدا فى آن واحد ، أى بطبيعة أو جبلة واحدة ، لكنه عز وجل لم يجعله عبدا لله ، ولا سيدا على الاشياء والاحياء غير الانسانية فى الارض •

وانما جعل الله عز وجل بذلك جوهر الانسان عبودية محضة مجردة وسيادة محضة مجردة ولذلك قال تعالى (انى جاعل فى الارض خليفة) ولم يحدد من يكون الانسان خليفة له ، ونائبا وعبدا له من ناحية ، كذلك لم يحدد ما الذى يكون الانسان سيدا عليه من ناحية أخرى •

ولكن الخلافة بهذا المعنى ، أى بمعنى العبودية المحضة «اللامتوجهة«

والسيادة المحضة « اللامتوجهة » ، لا تبدأ عند الانسان الا بعد بلوغ سن التكليف واكتمال شروطه ، أما فى مرحلة الطفولة ، فانه يكون عبدا لله عز وجل بمقتضى الفطرة ، مؤمنا موحدا ، فهو فى أحسن تقويم كما خلقه الله تعالى، ثم اذا بلغ سن التكليف ودخل عالم الابتلاء ، واكتملت عنده ملكات وقوى وامكانات السيادة ، وأهمها مقومات الفاعلية الانسانية الثلاثة : وهى الارادة المختارة والاستطاعة والعلم ، حينئذ تنتقل عبوديته الفطرية من حالة التعيين والتوجه لله وحده الى حالة اللاتعيين ، أى بعد أن كان عبدا لله وحده وهو طفل بمقتضى الفطرة تصبح عبوديته الجبلية غير متعينة ولا متوجهة فترة من عمره ، حتى يتبين له الرشد من الغى ، ويختار بينهما •

ومن ثم يوجه عبوديته : اما الى الله عز وجل ، أى يثبت فطرته ، ويظل فى أحسن تقويم ، واما يوجهها الى الطاغوت منفلتا من العروة الوثقى ، فيرتد أسفل سافلين •

تبدأ الخلافة اذن لدى الانسان الفرد مع دخوله عالم الابتلاء ، ولذلك فهى خلافة ابتلائية يتحدد بها جوهر الانسان : فردا ومجتمعا فى الدنيا ، ومصيره فى الآخرة ، حيث ينتهى به الامر فى الدنيا الى أن يصبح خليفة لله عز وجل ، أو خليفة للطاغوت • ومن ثم ينتهى مصيره الى جنة أو الى نار •

والصلة بين الخلافة والتوحيد ، تلك التى تحدثنا عنها آنفا ، والتى نريد توضيحها الآن ، تكمن فى أن جوهر العبودية وجوهر السيادة واحد ، حتى لكأنهما وجهين لحقيقة واحدة ، هى حقيقة التوحيد ، أى أننا اذا نظرنا الى التوحيد من زاويته العملية التطبيقية فى الحياة الانسانية ، نجد أن عبودية الانسان لله وحده تعنى بالضرورة سيادته على كل ما فى الارض ، ما عدا أخواته من بنى آدم •

وكذلك نجد أن سيادة الانسان على كل ما سوى الناس فى الأرض تعنى بالضرورة عبودية الانسان لله وحده .

فخضوع الانسان الحقيقى لله عز وجل وحده استعلاء وسيادة للانسان على كل شىء فى الارض . وتحقيق الانسان لسيادته على كل شىء فى الارض معناه التحرر من كل شىء فى الارض ، وهذا يستلزم ويؤدى فى نفس الوقت الى عبودية الانسان . لله وحده ، وهذا يعنى أن كلا من العبودية والسيادة علة ومعلول للاخر ، وهذا لا يكون بين أمرين الا اذا كانا شيئا واحدا ، وهذا ما عنيناه عندما قلنا أنهما وجهان لحقيقة واحدة .

ان التوحيد الاسلامى هو الايمان بالله وحده منفردا بالخلق والفعل والامر والتدبير محيطا بكل شىء متعاليا على كل شىء . والايمان أيضا بالانسان خليفة لله ونائبا له فى الارض يعنى أن الانسان هو المخلوق الاكرم والافضل والاعلى على كل شىء . والايمان أيضا بالانسان خليفة لله ونائبا له فى الارض يعنى أن الانسان هو المخلوق الاكرم والافضل والاعلى على كل مخلوقات الارض بل وينفرد بهذا العلو والتكريم بينها . ومن ثم فهو سيد عليها ومتفرد بالسيادة بينها .

والتوحيد ليس تحديدا لعلاقة الانسان مع الله عز وجل فقط ، وانما هو فى نفس الوقت تحديد لعلاقة الانسان مع ذاته ، ولعلاقته مع اخوانه من بنى البشر ، ومع غيره من مخلوقات الارض أيضا .

فاذا حقق الانسان عبوديته لله عز وجل . فانما يكون ذلك بخضوعه لله فى كل أحكامه وأوامره ونواهيه . وقد شاء الله عز وجل أن يكون الانسان على أعلى درجة وجودية بين مخلوقات الارض حتى كرمه على الملائكة وسخر له الشمس والقمر والنجوم وكل ما فى الارض جميعا ، ومن ثم

فالمطلوب من الانسان — طاعة الله عز وجل وخضوعا له أن يحقق هذا التكريم وأن يحافظ عليه فيكون سيدا على كل ما سخره الله له ، ويكون مفضلا ومكرما عند نفسه على كل ما كرمه الله وفضله عليه من أشياء وأحياء بما فى ذلك الجن والملائكة • فاذا فعل ذلك ، فقد أقر بالترتيب الكونى الذى أراده الله سبحانه ، واذا رفض ذلك وفضل على ذاته غيره من الملائكة أو الجن أو النجوم أو الكواكب بعبادتها أو بالتشفع بها ، فهو الكفر لانه رفض الترتيب والتفاضل الكونى للمخلوقات ، ذلك الذى أراده الله سبحانه وتعالى ، وهو نفس السبب الذى من أجله كفر ابليس عندما استكبر ورفض أفضلية الانسان عليه وسجوده له •

ولكن اذا ارتفع الانسان بذاته الى التقويم الاحسن الذى أراده الله تعالى له ، حتى لم يجعل فوقه الا الله وحده ، ولم يدع الا الله وحده ، ولم يستعن الا بالله وحده ، وجعل اتصاله بالله مباشرة ، أى كان حنيفا مسلما ، فانه يكون قد تخلص من خضوعه لكل ما سوى الله ، ولا يستثنى من ذلك حتى نفسه وهواه ، وهذا يعنى تماما افرادا لله بالالوهية والربوبية ، وقصر حرف العبودية والخضوع لله عز وجل وحده •

ومن ناحية أخرى ، فان صرف العبودية لله وحده ، افراده تعالى بالالوهية والربوبية ، معناه أن الذى يفعل ذلك لم يجعل بينه وبين الله عز وجل معبودا من المخلوقات يعلو على ذاته ، وانما يكون قد جعل كل المخلوقات دونه ، ويكون بذلك قد حرر ذاته وكرمها وفضلها وارتفع بها الى أحسن تقويم ، ومن ثم ينفرد الانسان على قمة الكون المخلوق فلا يكون فوقه الا الله ، فيكون عبدا لله وحده وسيدا على كل ما سواه فى الارض وهذا هو جوهر التوحيد متمثلا ، فى نفس الوقت ، وتحقيق العبودية لله عز وجل والسيادة فى الارض معا • ومن ثم فالخلافة هى التوحيد كحقيقة انسانية •

يتأكد لنا هذا المعنى ويتعمق ويتضح أكثر بتحليل الشرك والكفر من ناحية ، والخلافة لغير الله سبحانه من ناحية أخرى .

أما الكفر بالله عز وجل فهو صرف العبودية الاختيارية تماما لغير الله تعالى ، والشرك بالله سبحانه وتعالى هو صدق العبودية لله عز وجل ولغيره فى آن واحد .

فالكافر المنكر للالوهية أو للعناية الالهية يرفض عبادة الله عز وجل أصلا ، ويزعم — واهما — أنه الكائن الاعلى فى الكون كله وليس فوقه أحد .

ولكن هذا الانكار للالوهية لا يتعدى الناحية النظرية القولية فى حياة الملحد ، حيث أنه ينكر الاله قولا ، بينما هو يقر به فعلا وواقعا ، لانه يضطر — لتفسير الكون والحياة تفسيرا مقبولا لعقله — الى الاقرار بوجود قوى مدبرة يعطيها خصائص وصفات وأفعال الا له من أزلية وأبدية وتدبير واحياء واماتة ، وسواء أطلق عليها المادة أم الطبيعة أم المطلق أم القوانين الكونية الكلية أم العقل الكلى ، فكلها تعبير عن اقرار منه بقوة أو بقوى عليا، يسند اليها الفعل والتدبير ، هذا من الناحية التفسيرية النظرية ، أما من الناحية العملية ، فيختلف موقف الملحد ، أى منكر الالوهية أو منكر العناية، عن موقف المؤمن اختلافا جذريا ، ليس من حيث الاعتراف بالالوهية أو انكارها ، فهذا هو الجانب الاعتقادى ، ولكن من حيث الاقرار بعبوديته وصرفها لله عز وجل أو صرفها لغيره . وهذا هو الجانب العملى الواقعى فى التوحيد .

فمن البديهى أن ينكر الملحد أو الكافر أنه عبد لغيره ، ما دام قد رفض الاقرار بألوهية غيره ، ومن ثم فالموقف العملى للكافر مختلف تماما عن موقف المؤمن ، ولكن ليس وجه الاختلاف فى أن الكافر قد تخلص بكفره

من العبودية مطلقا، لان الكلمات الباطلة لا تغير من حقائق الاحياء والاشياء والكون ، وقد خلق الله عز وجل الانسان ــ ككل شيء فى الكون ــ عبدا له (ان كل من فى السماوات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ــ ٩٣ــ٩٥ مريم) •

فالانسان عبد لله عز وجل سواء أقر بعبوديته له أم لم يقر ، بيد أنه عندما يرفض أن يجعل عبوديته لله فانه بذلك قد يصرفها لغير الله ، أى يصرفها لالهه الذى سماه مادة أو طبيعة أو حاكم أو سلطان أو هوى أو أى طاغوت آخر • ومن ثم يصبح عبدا لهؤلاء جميعا أو لبعضهم أو لواحد منهم ، ومن كان عبدا لهذه الاشياء ، لا يمكن أن يكون سيدا عليها • فعندما يفعل الانسان ذلك ، يكون قد ارتد عن أحسن تقويم وعن المكانة الكونية العلية التى منحه الله تعالى اياها عندما جعله خليفة له بمقتضى الفطرة •

ففى نفس اللحظة التى يصرف فيها الملحد أو الكافر عبوديته لغير الله عز وجل ، ويوجهها الى غيره ، يصبح عبدا لهذا الغير ويخسر سيادته عليه ويرتد عن القمة فى عالم المخلوقات ، ويفقد مركزه الفريد بينها ، وعلى قدر كفره وفسقه وظلمه يكون ارتداده وتسفله ، ومن ثم لا يكون خليفة لله ، وانما يكون خليفة لغيره •

ومعنى هذا بوضوح : أن الذى لا يعبد الله وحده لا يمكن أن يكون سيدا فى الارض بالمعنى الحقيقى للسيادة ، كما يقتضى جوهر السيادة وماهيتها ، كما أن الذى يحقق عبوديته لله وحده ، يحقق فى نفس اللحظة سيادته الكاملة فى الارض •

وأما المشرك فهو يؤمن بالله عز وجل ، ولكنه يجعل معه أربابا غيره (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون — ١٠٦ يوسف) • فيسند الى غيره تعالى المشاركة فى العقل والخلق والتدبير والنفع والضر •

فالوثنية والطوطمية فى القديم والحديث تقوم كلها على الايمان بأن الله عز وجل لا ينفع ولا يرزق ولا يضر ولا يفعل الا عن طريق وسائط بين الانسان وبينه كالنجوم والكواكب والشمس والقمر والانواء والانهار والانعام والجن والملائكة وأفرادا من البشر كالانبياء والاولياء ، وقد ينحدر الاعتقاد البشرى أكثر ، فيقوم على التوهم بأن نفع الله وضره لا يصل الى الانسان الا من خلال الاحجار والاشجار والحيوانات المقدسة والاشباح والشياطين •

وجوهر هذه العقيدة هى التشفع والتوسط والتزلف الى الله تعالى بهذه المخلوقات ، أحدها أو بعضها ، وعادة ما ينتهى الامر بأصحاب هذه العقائد الى اتخاذ أوثان أو أصنام كرموز لهذه الاشياء سواء كانت حقيقية كالشمس والنجوم والكواكب والملائكة والصالحين ، أم كانت وهمية كالهة الاساطير المصورة فى أصنام وتماثيل •

لكن الدراسات الانثروبولوجية الغربية الحديثة ، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، أن كل الشعوب الوثنية والقبائل البدائية التى تتخذ الطواطم والاوثان ، انما تعبد كائنا أعلى غيبيا غير مادى ، الا أنهم يعتقدون أن فى الاوثان أو الاشياء المقدسة لديهم قوى غيبية تجعلهم يرجون منها النفع ، ويخافون منها الضر ، ليس باعتبار أن النفع والضر من ذاتها ، ولكن باعتبارها مجرد معبر لنفع وضر الكائن الاعلى الغيبى •

وهذا ما أثبته القرآن الكريم عن عقائد الوثنيين بقوله عن تفسيرهم وتبريرهم لها (الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء

ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار — ٣ الزمر) •

فجوهر الشرك هو اتخاذ أولياء أى وكلاء وشفعاء وخلفاء من دون الله يتقربون بهم اليه ، ولا يخفى على أحد من المسلمين العارفين بمبادىء الاسلام ، أن اتخاذ الشفعاء والوسطاء للتقرب بهم الى الله عز وجل شرك صريح • ومن ثم فمعنى الشرك هو أن يجعل الانسان بين ذاته وبين الله عز وجل خلفاء من دونه • بينما هو فى ذاته خليفة لله عز وجل ، أى نائبا مباشرا له ، فلا يجوز أن يجعل بينه وبين الله وسطاء ، أو شفعاء ، أو أولياء، أو خلفاء بحجة أنه ليس أهلا للاتصال المباشر بالله ، وأن هؤلاء الشفعاء والخلفاء أكرم منه عند الله ، وذلك لسببين :

الاول : أنه يكون بذلك قد خالف مشيئة الله بجعله خليفة له ، ويصبح موقفه فى ذلك هو نفس موقف ابليس ، اذ أن فى هذه المخالفة رفض للترتيب الكونى بين المخلوقات ، كما شاءه رب العالمين سبحانه وتعالى ، والذى تكون فيه الذات الانسانية أكرم المخلوقات عند الله عز وجل •

الثانى : أن اتخاذ الانسان الفرد أولياء أو شفعاء أو خلفاء من دون الله سبحانه وتعالى — علاوة على أنه يجعل هؤلاء الوسائط أربابا تخشى وترتجى ، وهذا مخالف للتوحيد — فانه — وبخاصة من الناحية العملية فى الحياة — يوقع الضرر كل الضرر من الشرك على الذات الانسانية ، التى تصبح فى درجة أدنى وأسفل من درجات الشفعاء • لان كل المخلوقات هى أدنى — بحسب الخلقة والجبلة ، وبمقتضى الخلافة — من الذات الانسانية فاذا اتخذها الانسان شفعاء وأولياء وخلفاء ، نزل من مستوى خلافته لله عز وجل — الذى هو عليه بمقتضى الخلقة والجبلة — الى مستوى خلافته

لغير الله وذلك بمقتضى التغيير الذى يحدثه فى فطرته ، والانتقال بها من التوحيد الى الشرك باختياره وأفعاله .

وهذا المعنى للشرك واضح كنقيض للتوحيد ، من حيث نتيجة كل منهما العملية — لانه اذا كان التوحيد هو سبيل المحافظة على الذات الانسانية وابقائها فى أحسن تقويم ، فان الشرك هو سبيل تدمير هذه الذات والارتداد بها أسفل سافلين .

وتتضح لنا حقيقة الشرك أيضا — كنقيض للتوحيد — بمعنى أنه — أى التوحيد — افراد لله عز وجل بالربوبية ، وصرف العبودية له وحده . لان المشرك جعل مع الله أربابا حين اعتقد بفاعليتهم فى الكون ، وحين اعتقد بمكنتهم فى التشفع عند الله والتأثير عليه ، وحين توجه اليهم بالطلب والدعاء ، لكى يطلبوا هم بدورهم هذه الطلبات له من الله ، مما يعنى أن المشرك — علاوة على اعتقاده بأن لهم تأثيرا على الاله فى الفعل والتدبير — فانه يرى فى نفسه أنه غير جدير بالاتصال المباشر بالله والطلب منه .

وفى هذا وصف لله عز وجل بما لا يليق بجلاله ، وفى نفس الوقت وصف للذات الانسانية بما لا يليق بكمالها ، وبما يفقدها تكريمها وتفضيلها على كل مخلوقات الارض . وهذا يعنى تضييع السيادة من الانسان على سائر المخلوقات ، ومن ثم تضييع الخلافة .

ومعنى هذا أن الشرك بالله — كما هو نقيض للتوحيد — فهو أيضا نقيض لخلافة الانسان لله فى الارض ، وذلك لان الانسان يفقد سيادته على المخلوقات فى الارض ، فى نفس اللحظة التى يقع فيها فى الشرك .

فالعبودية لله وحده تعنى أنه ليس للمحقق لها اله ولا رب الا الله . وهذا يعنى أنه لا سيد له الا الله ، ومن ثم يكون هو سيدا على ما سواه،

وكأن حال الموحد يقول : لقد خلقنى الله خليفة ، وأمرنى أن أكون خليفة له فكرمنى على كل ما سواى فى الارض ، فكل المخلوقات فى الارض دونى ، وأنا سيد عليها ، فليس بينى وبين الله مخلوق ، فلا أتوجه الا الى الله حنيفا، ولا أعبد الا الله ، ولا أرجو الا الله ، ولا أخاف الا الله ، ومن ثم فلا أدعو الا الله ، ولا أستعين بأحد سواه ، ولا أتقرب اليه بغيرى ، لان كل ما هو غيرى فى ارض دونى فى المرتبة الوجودية ، وأقل منى فى التكريم والافضلية الذين أسبغهما الله على .

أما الشرك فانه عندما جعل بينه وبين الله خلفاء ، دعاهم من دون الله عز وجل فان حاله يقول : ان هؤلاء الخلفاء ، أو الشفعاء أفضل منى عند الله وأكرم ، وأنا لست أهلا لان أدعو الله ، وأطلب منه مباشرة ولابد من التزلف له بمن هو أفضل منى عنده ، ولابد لى أن أدعوهم وأرجوهم ، وأتقرب بدورى لهم ، حتى يرضوا عنى ويتقربوا هم لى عند الله عز وجل ، ويتشفعوا لى عنده .

هنا يفقد الانسان سيادته فى اللحظة التى يشرك فيها ، بل يفقد ذاته، اذ أنه يصبح عبدا لمن يطلب منه الشفاعة ويثبت له الافضلية والتكريم عليه، فكيف يمكن أن يظل بعد ذلك سيدا عليها . وعلى قدر المخلوقات ومقدار عدد المخلوقات التى يتشفع بها الانسان ويتخذها خلفاء من دون الله يكون فقده للسيادة ، وتسفله أسفل سافلين .

ان الذى يجعل بينه وبين الله عز وجل مخلوقات من دونه ، يقر بأفضليتها عليه عند الله ، لا يمكن أن يستقر على قسمة الكون المخلوق ، ولا يمكن أن يصبح خليفة لله أو نائبا له ، بل يصبح خليفة ونائبا لهذه المخلوقات التى جعلها بينه وبين الله عز وجل ، فيكون مشركا بالله ويكون

خليفة لغيره فى آن واحـــد ، ومن ثم لا يكون ســـيدا على ما فى الارض ، حيث عبوديته للشفعاء تفقده سيادته عليها •

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن العبودية لله وحده والسيادة فى الارض ، وجهان لحقيقة واحدة ، ويعنى تحقيق احداهما فى حياة الانســـان تحقيق الاخرى بالضرورة ، بل يستتبعه ويستلزمه فى نفس اللحظة •

ويعنى تضييع احداهما فى حياة الانسان تدمير الاخرى بالضرورة • ويستتبعه ويستلزمه فى نفس اللحظة •

ان العبودية لله وحده بالنسبة للانسان هى سيادته فى الارض ، ولكن العبودية لله وحده بالنسبة لغير الانسان لا تستتبع سيادته فى الارض وهذا يفسر لنا انفـــراد الانســـان بالخـــلافة فى الارض وتميزه بها عن ســـائر المخلوقات • والعبودية والسيادة معاهما التوحيد •

ومعنى هذا أن سيادة الانســـان فى الارض ركن أســـاسى من أركان توحيده لله عز وجل •

بينما خضوع غيره من كائنان الارض للانسان وقبـــولها بســـيادته وتسخيره لها جزء من توحيدها لله عز وجل لان الله عز وجل هو الذى أمرها بذلك وأراد للانسان ذلك •

بل ان كفر ابليس لم يكن سوى رفضه الخضوع والاقـــرار لسيادة الانسان عليه وتفضيله وتكريمه عليه ، لان فى هذا الرفض جحود لامر الله عز وجل ، فالمخلوقات متفاضلة فيما بينها ، كل حسب الدرجة التى شاء الله عز وجل أن يكون فيها • فاذا رفض كائن كابليس مكانته متعاليا متكبرا عن درجته التى أراده الله عليها فهذا هو الكفر •

واذا رفض كائن درجته وتكريمه وتفضيله الذى خصه الله به وانحط

وتسفل ورضى لنفسه بالهبوط عن الدرجة التى خلقه الله عليها ، وذلك مثل الانسان عندما يشرك ويتشفع الى الله بما هو دونه فهو الكفر أيضا •

ولن يكون الانسان فى أحسن تقويم وفى المنزلة الكريمة المفضلة التى أرادها الله له الا بالتوحيد •

ولن ينال بالشرك والكفر الا الانحطاط والصغار والتسفل أسفل سافلين فالتوحيد هو سبيل المحافظة على الذات الانسانية وتكريمها •

والشرك هو سبيل الانحطاط وضياع هذه الذات •

ان الشرك لا يضر الله عز وجل بل يضر الانسان المشرك وحده كما أن التوحيد لا ينفع الله عز وجل بل هو خير للانسان الموحد فى الدنيا والاخرة• وذلك لان التوحيد هو سبيل تحقيق خلافة الانسان لله فى الارض •

وهذا ما قصدنا اليه بقولنا أن التوحيد والخلافة لله وحده حقيقتان متوازيتان الاولى : وجودية معرفيه فى مجال الالوهية والثانية وجودية معرفيه فى مجال الانسانية • ومن ثم يمكن القول أن الخلافة هى غاية الغايات الانسانية ، وهذا لا يتعارض مع كون التوحيد أصل الاسلام وغايته فى حياة المسلم •

(٣) الارتقـــاء الذاتى فى مجـــال العبودية والتقـــدم المدنى فى مجال السيادة

علمنا أن خلافة الانسان فى الارض تقوم على جانبين وتتم بحركتين:

الاولى : هى حركة الذات الانسانية فى مجال تحقيق العبودية •

الثانية : هى حركة الانسان فى مجال تحقيق السيادة •

والحركة الاولى ذاتية وليست مادية بمعنى أن التغير فيها يتم فى ذات الانسان ، بينما الحركة الثانية ، وان كانت من فعل الانسان ، الا أنها تتم فى المحيط المـــادى الخارجى الذى يعيش فيه • ومن ثم تختلف الحركة فى مجال العبودية عن الحركة فى مجال السيادة ، كيفا وكما ونتيجة •

قلنا ان الاولى ذاتية نفسية تتأرجح فيها الذات الانســـانية عـــلوا وتسفلا وارتفاعا وهبوطا وسموا وانحطاطا بين أحسن تقـــويم وأســـفل سافلين ، فهى حركة رأسية • ويتم العلو والارتفاع والسمو بالتوحيـــد ، أى بافراد الله أو بتعبير آخر يعرف العبودية الجبلية فى النفس الانسانية لله وحده ، ومنعها عمن سواه ، ويتم التسفل والهبـــوط والانحطاط بالشرك والكفر ، أو بتعبير آخر يصرف العبودية الجبلية التى خلق الله الانســـان عليها لغير الله عز وجل •

فالحركة فى مجال العبودية من أعلى الى أسفل ، ومن أسفل الى أعلى وبناء على الشرك والتوحيد ، أو بناء على موقع الفرد أو المجتمع من أحسن تقويم أو من أسفل سافلين ، يكون سلوك الفرد الخلقى وأنظمة المجتمـــع وعاداته وأعرافه ومعاملاته بين أفراده وعناصره من ناحية ، ومعاملاته مع المجتمعات البشرية الاخرى من ناحية ثانية •

فحسب قول الله عز وجل المحكم الذى هو قطعى الدلالة ولا يحتمل الاختلاف فى الفهم والتفسير ، فان الله عز وجل خلق الانسان فى أحسن تقويم ، قال تعالى (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الامين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون — سورة التين) وهذا معناه أن الانسان يولد ذاتا سامية عالية مكرمة خيرة موحدة ، وكل ذلك بمقتضى الفطرة ، وكل ذلك فى كلمة واحدة هى الذات الانسانية ، ومعنى ذلك أن كل فرد من بنى آدم يولد انسانا ، ولكنه عندما يموت لا يكون بالضرورة انسانا ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أما سواهم فانهم يهبطون ويرتدون الى أسفل سافلين •

فمكانة الانسان الوجودية — بمقتضى الفطرة — مكانة تعلو على مكانة كثير من خلق الله تعالى حتى على مكانة الملائكة ، ثم يدخل الانسان عالم الابتلاء عند بلوغه سن التكليف ، فاما أن يحسن اختياره ويحافظ على الامانة التى بين جنبيه ، ونعنى بها ذاته الانسانية وفطرته الموحدة الخيرة التى فطره الله عليها ، ومن ثم يظل فى أحسن تقويم ، واما يفسق ويشرك ويظلم ويكفر بالله عز وجل ويدمر فطرته ، ويعيش كما تعيش الانعام أو أضل ، ومن ثم يدمر ذاته الانسانية ويفقد الامانة وبذلك ينحط الى أسفل سافلين •

والغالب على الناس فى الارض التسفل ، والاستثناء هو المحافظة على التقويم الاحسن •

ولكن ليس يوجد ما يمنع بعض الناس الذين يرتدون الى أسفل سافلين ، أن يحاولوا التسامى والعلو الى أحسن تقويم مرة ثانية ، وهذا

ما نراه فى واقع الحياة البشرية ، حيث يؤمن الكافر ويرجع المشرك الى التوحيد ، ويتوب الفاسق والظالم والمنافق .

فالحركة من أعلى لاسفل التى تنقل الذات الانسانية من التقويم الاحسن الجبلى أو الفطرى تتم نتيجة الكفر والشرك والفسق والظلم فقوله تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين) أى ثم رددنا الكافر والمشرك والفاسق بأعمالهم أسفل سافلين ، وذلك بسبب تحقيق عبوديتهم لغير الله تعالى . ودليل هذا قوله تعالى بعد ذلك (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فهؤلاء لا يرتدون أسفل سافلين ، بل يظلون فى أحسن تقويم ، بفضل الله عز وجل وقوته وحوله ، ثم بسبب اختيارهم الحسن وأعمالهم الطيبة الموافقة لمقتضيات الايمان وشرع الله عز وجل ، أى بسبب تحقيق عبوديتهم لله عز وجل .

والحقيقة التى نريد أن نصل اليها من كل هذا هى أن حركة الذات الانسانية فى مجال تحقيق العبودية حركة رأسية ، تتم بين التقويم الاحسن وأسفل سافلين ، وأنها وهذا هو المهم تتحقق فى عمر الفرد الواحد ، وفى حياة الجيل الواحد .

ففى حياة جيل واحد كجيل الصحابة يمكن لمجتمع أن ينهض ويسمو ويرتقى من أسفل سافلين الى أحسن تقويم تماما كما يمكن أن يتم هذا فى عمر الفرد الواحد .

وفى حياة جيل واحد ، يمكن لامة مسلمة قانتة موحدة ، أن تفتن بالمال أو الثراء الفاحش ، فيغلب على أفراد هذا الجيل الانحطاط والارتداد الى أسفل سافلين .

والامر فى هذه الحالة متوقف على اختيار الانسان فردا ومجتمعا ، وموقفه من الابتلاءات التى تعرض له .

من أجل ذلك أنزل الله عز وجل دينه وشرعه فى جيل واحد أيضا ، وأكمله وأتمه فى حياة نبيه ، وفى فترة بعثه التى تزيد قليلا على عشرين عاما، والحكمة فى هذا واضحة وهى أن الانسان فردا ومجتمعا مطالب بأن يحقق فى حياته الفردية وفى عمر الجيل الواحد عبوديته لله وخلافته له •

وهذا يستلزم أن يكون منهج تحقيق العبودية لله تاما كاملا بين يدى الجيل الواحد • ومن ثم كانت الرسل والرسالات السماوية تترى فى كل زمان وفى كل مجتمع حتى آخر الرسالات السماوية الجامعة التامة للناس والتى لا زالت منذ نزولها على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الانبياء والرسل الى يوم القيامة محفوظة بعناية الله عز وجل ووعده •

ومن ثم لم يفوض الله عز وجل الانسان فى تحصيل منهج تحقيق العبودية لنفسه ، لانه يحتاج الىأزمان وأزمان لتحصيل المعرفة جيلا بعد جيل ، هذا ان كان فى مقدوره واستطاعته أن يصل الى المنهج بنفسه ، فكيف وهو لا يستطيع ذلك ، وليس فى مقدوره ؟•

ان المتغير نتيجة الحركة الرأسية فى مجال تحقيق العبودية هو النفس الانسانية ، حيث تنتهى حياة الانسان ، وهو اما أن يكون قد ظل على أحسن تقويم ، أى انسانا كما خلقه الله عز وجل ، واما ينتهى به الامر الى التسفل الى أسفل سافلين أى يصبح كالانعام بل ربما أضل •

فالتغير هنا فى حقيقة الذات الانسانية وماهيتها وجوهرها ، حيث أن هذه الذات ليست ثابتة جامدة بل هى متحركة متغيرة متحولة ومتبدلة بقدر الارتفاع والتسفل •

وبذلك يكون هذا الجانب هو أخطر جانب فى الحضارة لان نتيجته تدمير الذات الانسانية أو المحافظة على جوهرها •

ومن ثم ، ولكل ذلك ، كان لابد أن يكون منهج تحقيق العبودية لله ثابتا ، علاوة على كماله وتمامه •

ولذلك نقول ان شريعة الله عز وجل نزلت من السماء بالوحى قرآنا وسنة ، لتظل ثابتة الى يوم القيامة حتى يأتى كل جيل فيجد المنهج جاهزا

والدين كاملا والشريعة تامة باعتبار أن ذلك كله مقياس للكمال الانسانى ، الذى هو أحسن تقويم[1] .

فلا زيادة ، ولا انتقاص ، ولا تبعيض فى شريعة الله عز وجل ، والا لما تحققت العبودية له ، ولكان الشرك والكفر بعينه .

أما حركة الانسان فى مجال تحقيق السيادة فى الارض فهى ليست منصبة على النفس الانسانية أو على جوهر الذات الانسانية ، كما هو الحال بالنسبة لحركة تحقيق العبودية . بل هى منصبة على المحيط الخارجى المادى الذى يعيش فيه الانسان . بما فى ذلك الاشياء والاحياء التى حوله .

ولما كان تحقيق السيادة يتوقف على العمل وفق منهج علم الانسان بالاشياء والاحياء والسنن الالهية فى الكون والطبيعيات وظواهرها ، ولما كان الانسان يحصل هذا العلم عن طريق الحس والملاحظة والتجربة والخبرة وبجهده العقلى ، فان هذا العلم لا يمكن أن يحصله الانسان خلال عمر فرد واحد ، أو فى حياة جيل واحد ، بل هو رصيد يتنامى عبر الاجيال والازمات والعصور ، من لدن آدم حتى قيام الساعة .

ولما كان الانسان يحقق من السيادة على بيئته بقدر رصيده الموروث والمحصل من العلوم التجريبية .

لذا كانت حركة الانسان فى مجال السيادة حركة أفقية ، فيها المتقدم بخطى سريعة والمتحرك بخطى بطيئة والجامد فى مكانه والمتخلف عن الصفوف جميعا ، وهكذا المجتمعات فى كل عصر كل حسب الاخذ بأسباب التحصيل العلمى وتسخير الاشياء .

---

(١) هذا لا يمنع من الاجتهاد فى الامور المستحدثة طبعا ولكنها على اى حال جزئية وفرعية وقليلة بالنسبة لما جاء به الوحى .

فالتقدم والتخلف لا يكون الا فى مجال تحقيق السيادة أى فى المجال المدنى من الحضارة الانسانية ، بينما السمو والتسفل لا يكون الا فى مجال تحقيق العبودية ، أى فى مجال العلاقات والمعاملات الانسانية والبشرية .

وبينما وجدنا أن المطلوب من الانسان تحقيق ذاته والمحافظة على التقويم الاحسن أو الارتفاع اليه فى عمر الفرد والجيل الواحد ، مما استلزم أن يكون الدين ثابتا ويجب أن يكون كذلك ، نجد أن المستوى المطلوب تحقيقه من السيادة فى الارض غير محدد ، ومن ثم يستحيل على جيل واحد أن يصل الى آخر الشوط ، بل الواجب على الانسان فى حياته القصيرة أن يحقق أكبر قدر ممكن من السيادة فى عصره بحسب الرصيد العلمى الذى يرثه والحصيلة العلمية التى يحصلها بكسبه .

ومن ثم كان المستوى المدنى فى الجانب الحضارى نسبيا وليس مطلقا ، بينما المستوى الانسانى أو السمو فى جانب العبودية مطلق وليس نسبيا . ومن ثم كان العلم التجريبى متناسبا متطورا أو يجب أن يكون الحال فيه كذلك وليس الثبات والجمود .

ان المستوى المطلق للكمال الانسانى فى مجال العبودية لله عز وجل متمثل فى سيدنا محمد ﷺ كفرد حقق عبوديته الفردية لله عز وجل ، والمستوى المطاق للكمال الانسانى بالنسبة للمجتمع متمثل فى جيل الصحابة رضوان الله عليهم ، الذين أقاموا مجتمع الخلافة بتحقيق عبوديتهم الاجتماعية لله عز وجل على أساس العبوديات الفردية لكل منهم بتفاوت فيها بالقياس الى الاسوة الحسنة للانسانية جمعاء وهو سيدنا محمد ﷺ .

أما بالنسبة لمستوى الكمال فى جانب السيادة فانه لا يمس الذات الانسانية ولا يرتبط بها بقدر ارتباطه واتصاله بالمحيط الخارجى وذلك

باعتبار الذات الانسانية علة فاعلية فى مجال السيادة وباعتبار تغيير البيئة والمحيط الخارجى هو العلة الغائية •

ومع ذلك فهو جزء رئيسى ومتمم لغاية الانسان القصـــوى فى الحياة ونعنى بها الخلافة •

لكن المقياس بالنسبة للســـيادة نسبى ، والمستوى بالنسبة للفـــرد الواحد والجيل الواحد غير محدد وان كان لمستوى السيادة المأمول بالنسبة للانسان كنوع حد أقصى •

أى أن الله عز وجل قدر للانسان فى الارض من لدن آدم حتى آخـــر الحياة الدنيا أى حتى قيام الساعة ، قدر له حدا لسيادته لا يستطيـــع أن يتعداه (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنـــاه من السماء فاختلط به نبـــات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ـــ ٢٤ يونس) •

ولكن هذا لا يمثل الحد الاقصى لسيادة الانسان على الارض حيث بين الله عز وجل لنا الحد الاقصى الذى حققه الله عز وجل لسليمان عليه السلام فأتاه ملكا عظيما وسيادة واسعة على كل شىء وحى فى الارض لكنه دعا ربه ألا يجعل هذا المستوى من السيادة والملك لاحد من بعده (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ، قال رب أغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى انك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ٣٤ـــ٣٩ ص)•

ولعل الحد الاقصى لسيادة وملك ســـيدنا سليمان ـــ والذى لا يمكن

لاى مدنية أو حضارة مهما تقدمت أن تصل اليه ــ هو فيما أخبرنا الله عــز وجل به عن سليمان حيث قال (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين • قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هــذا من فضــل ربى ليبلونى أ أشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم ٣٨ ــ ٤١ النمل) •

وهذا المستوى من التحكم فى الاشياء والاحياء أو على وجه التحديد هذا المستوى من القوة والسرعة فى النقل والانتقال لن يصل اليه أى مستوى تقنى أو صناعى فى مستقبل البشرية الارضى على الاطلاق •

ولكن سيصل اليه الانسان وأكثر فى حياة الخلافة الابدية فى الجنــة قال تعالى (واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ١ ــ٢٠ الانسان) وقال تعالى (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ٣٥ ق) •

وهذا يعنى أن من يحقق خلافته لله عز وجل فى الدنيــا يحصــل على المستوى المحدود من السيادة الذى يتناسب مع عصره وبشرط أخذه بأسباب هذه السيادة وعللها لاكتسابها بالاستطاعة البشرية ، نقول : ان من يحقق ذلك يكون جزاؤه الحصول على الخــلافة الابدية فى الجنة التى يكون فيها وليا لله عز وجل سيدا على مخلوقات فيها سيادة مطلقة •

لكن المستوى المدنى فى الجانب الحضــارى نسبى ، والسيادة التى يتمكن بها الانسان فى الارض تزداد وتتوسع باطراد بازدياد حصيلة العلوم التجريبية والخبرات التقنية والصناعية •

فالقرن التاسع عشر متقدم بالنسبة للقرن الثامن عشر وهو أيضا ــ

أى التاسع عشر متخلف بالنسبة للقرن العشرين ، ولكن هذا التقدم المطرد ليس بالنسبة لعمر البشرية وانما هو بانسبة لعمر حضارة واحـــدة بعينها أو مدنية واحدة بعينها • وهذا يعنى أنه من الجـــائز أن تنتكس مدنية ما فتندثر علومها وتضيع وتهرم حضارتها وتفنى وتبدأ مجتمعاتها وأممها شوط الحضارة والمدنية مرة ثانية من أوله •

وذلك لان مستقبل ومصائر الحضارات متوقف على جانب العبـــودية أكثر من توقفه وارتباطه بجانب السيادة اذ أن جانب العبودية فى نشـــأة الحضارات بمثابة المقدمات وجانب السيادة بمثابة النتائـــج والمقـــدمات تسبق النتائج كما تسبق العلل المعلولات فاذا فســـدت المقدمات أو العلل فسدت المعلولات أو النتائـــج بالضرورة ومن هـــذا اســـتئصال الامم من الارض أو تشتيتها وتفككها كأمة حضارية بالعوامل التاريخية لفناء الامم والمجتمعات والحضارات قال تعالى مبينا انتهاء الامة ذات المستوى المتقدم فى جانب السيادة بسبب تسفلهم فى جانب العبودية والعلاقات الانســـانية (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبـــة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الارض فأخـــذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب ٢١ــ٢٢ غافر) فعبر سبحانه وتعالى عن التقدم فى جانب السيادةوفى الجانب المدنى بوصفهم بأنهم (كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الارض) •

وبين سبحانه أن آثار الانسان فى الارض تشتد وأن قوته تزيد على الاشياء والاحياء ويتمكن منها بالعلم • وان الناس فى المجتمعات التى تكون على درجة متقدمة فى مجال السيادة بسبب زيادة حصيلتهم من العلم عادة أو غالبا ما يفتنون وينحدرون فى جانب الاخـــلاق ويتسفلون فى الجـــانب

الانسانى أى فى جانب العبودية ، ومن ثم تجرى عليهم سنة فناء الحضارات بهذا السبب ولا يغنى تقدمهم فى الجانب المدنى عن ارتدادهم الى أسفل سافلين فى جانب العبودية • قال تعالى مبينا ذلك كله (أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثار فى الارض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ٨٢—٨٥ غافر) ويتضح لنا من قوله تعالى (كانوا أكثر منهم قوة وآثارا فى الارض •••) ان التقدم المدنى والتقنى والعمرانى يحدث فى جانب السيادة بسبب زيادة حصيلتهم فى العلوم والخبرات وقد فتنهم هذا كله فلم يستجيبوا لدعوة الرسل للسمو فى جانب العبودية وللارتفاع الى أحسن تقويم فخفت عليهم سنة الله فى فناء الحضارات اما بالاستئصال واما بالاندثار وذلك بسبب فرحهم واستغنائهم بالجانب المدنى القائم على العلم عن جانب العبودية القائم على الدين والوحى الذى تأتى به الرسل •

كما بين الله عز وجل فى سورة الروم أن العلم الخاص بالسيادة انما هو قاصر على ظاهر الحياة الدنيا مغفل لحقيقة الوجود الانسانى الذى ينتهى الى الاخرة ، وأن هذا العلم — وان كان هو سببا للقوة ولاثارة الارض وتعميرها — الا أنه أيضا — اذا اكتفى الانسان به وبالسيادة التى يحققها فى الارض واستغنى به عن الوحى الذى ينزل على الرسل لتحقيق العبودية لله ومن ثم الخلافة له عز وجل — فان هذا يكون سببا فى اندثار هذا العلم وهذه القوة والمدنية والعمران الناتج عنهما قال تعالى عن أمثال هؤلاء (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق

وأجل مسمى وأن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٧ــ٩ الروم) •

فأثبت العلم الظاهر القاصر على الحياة الدنيا الذى تكون نتيجته القوة واثارة الارض تعميرها مع الاستغناء عن الوحى واهمال جانب العبودية لله عز وجل • جاء فى تفسير ابن كثير (قال الحسن البصرى : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلى • قال ابن عباس يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم فى أمر الدين جهال)[1] •

وهكذا يثبت القرآن الكريم وجهى الخلافة : العبودية والسيادة والمقومين اللذين تتحقق بهما : الدين والعلم ، كما يثبت هيمنة وتقدم جانب العبودية على جانب السيادة •

كذلك يثبت القرآن الكريم المقياس المطلق لجانب العبودية فى حياة الناس والموازين والقيم الثابتة التى تحكم هذا الجانب من حياتهم ونعنى جانب العبودية الخاص بعلاقة الانسان بربه وبأخوانه من الناس • هذه الموازين والقيم النازلة من السماء على الرسل والتى لا تستقيم حياة الانسان وتستمر حضارته وتنمو الا فى ظلها فاذا أهملها ولم تعد له قيم أو موازين ربانية مطلقة ثابتة تحولت حياة الانسان من كونها خلافة لله الى خلافة لغيره وهذا ايذان بانتهاء هذه الحضارة أو بتعبير أدق هذه المدنية وهذا العمران •

---

(١) تيسير العلى القدير لاختصار تفسيرات ابن كثير لمحمد نسيب الرفاعى المجلد الثالث ص ٤٣٢ الطبعة الاولى بيروت ١٣٩٢ هـ .

لقد جمع الله عز وجل فى آية الحديد من سورة الحديد منهج تحقيق العبودية وأسبابه مع منهج تحقيق السيادة والقوة والعمران فقال عز من قائل (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز — ٢٥ الحديد) .

فقوله تعالى (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) دليل على أن منهج العبودية أو الدين شريعة ثابتة وقيم مطلقة .

وقوله تعالى (ليقوم الناس بالقسط ..) دليل على أن هذا المنهج يهدف الى قيام العلاقات والمعاملات الانسانية فى المجتمع على أسس الحق والعدل والخير والرحمة . وهذا كله يمثل جانب العبودية .

وقوله تعالى (وأنزلنا الحديد ..) فيه أشارة وبيان لعلة رئيسية هامة من علل السيادة فى الارض والتمكين فيها وهو الحديد (فيه بأس شديد) انه السلاح الذى يبدأ بالخنجر والسيف وينتهى بالدبابة والطائرة والصاروخ والقنابل النووية وغير النووية .

وقوله تعالى (ومنافع للناس ..) فيه بيان للآلات التى يتمكن بها الانسان من اثارة الارض وتعميرها ابتداء من الناس وانتهاء بالحراثة الآلية وجميع آلات البناء والتعمير الحديثة وآلات المصانع ووسائل النقل والابنية الناطحة للسحب وكل ما ينفع الناس من اختراعات وصناعات توصل اليها الانسان نتيجة لتعاظم حصيلته فى العلوم التجريبية والخبرات الثقنيه

وقوله تعالى (.. وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز) بيان منه تعالى للحكمة التى من أجلها أنزل الاثنين الدين كمنهج

لتحقيق العبودية لله وكمقياس ثابت وميزان دائم وقيم مطلقة لتعامل الانسان مع أخيه الانسان والحديد معه العلم الذى يتمكن به الانسان من استخدامه فى البأس الشديد والمنافع ، هذه الحكمة هى الابتلاء الذى تكون نتيجته بالضرورة أن يميز الله به الخبيث من الطيب ويعلم به من ينصره ورسله بالغيب ومن ينصر الطاغوت أى من يكون خليفة لله ومن يكون خليفة للطاغوت •

وهكذا يثبت القرآن الكريم ضرورة الثبات فى الدين حتى تتحقق العبودية لله وضرورة التنامى والتعاظم والتطور فى العلم والتقنية حتى تتحقق السيادة للانسان فى الارض •

كذلك يثبت القرآن الكريم أن جانب العبودية هو الاساس والاصل فى عملية التغير التاريخية والمضاربة ، سواء كان تغيرا نحو النمو والازدهار أو كان نحو الافول والاندثار • وان جانب السيادة — الذى عادة ما يفتتن أكثر الناس بالتقدم فيه — انما هو تابع ونتيجة حتمية لجانب العبودية أو بقول أوضح متوقف على موقع الانسان من أحسن تقويم أو أسفل سافلين •

وهذا هو الذى يمكن أن نفهمه من قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم •••)

فأثبت الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة تغيرين تتحدد بحسبهما مصائر الامم ومستقبل الحضارات •

التغير الاول فى مجال العبودية ، وقد قلنا ، ان حركة العبودية تتناول الذات الانسانية ، فهو تغير نفسى بالنسبة للفرد ، اجتماعى بالنسبة للمجتمع •

والتغير الثانى فى مجال السيادة وقد قلنا أن حركة الانسان فى مجال السيادة تتناول المحيط الخارجى والبيئة المادية .

والذى يدل على هذين التغيرين قوله تعالى عن التغير فى مجال السيادة (ان الله لا يغير ما بقوم ..) أى ما بقوم من نعم أو قوة أو عمران أو تقدم أو تخلف مدنى . وقوله تعالى عن التغير فى مجال العبودية (حتى يغيروا ما بأنفسهم ...) من تسفل وانحطاط فى مجال العبودية الى سمو وطهر بالانتقال من الشرك الى التوحيد أو (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من سمو وطهر وتوحيد وايمان الى تسفل وانحطاط ودنس وشرك وكفر .

والذى يدل على أن جانب العبودية هو الاساس والاصل فى التقدم المدنى والازدهار الحضارى أو بتعبير القرآن هو الاساس فى تحقيق الخلافة لله بجانبها : العبودية والسيادة ، هو قول الله عز وجل (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فأثبت أن التغيير التاريخى فى حياة الامم بيده عز وجل ولكنه بين أن هذا التغيير يتوقف على اختيار الانسان بين أحسن تقويم أو أسفل سافلين وحدوث التغيير النفسى والاجتماعى اللاحق لهذا الاختيار أى أن الله عز وجل قد فوض الانسان وأعطاه الحرية فى أن يحدث هو التغيير النفسى والاجتماعى بنفسه ومجتمعه ثم هو سبحانه يحدث التغيير المدنى فى المحيط الذى يعيش فيه الانسان بناء على هذا التغيير النفسى الذى يتم بارادة الانسان . فتغيير الله فى مجال السيادة يتم بناء على تغيير الانسان فى مجال العبودية .

ولكن تقرير هذه الحقيقة قد يعترضه معـــترض من واقـــع التاريخ البشرى المعاصر الا وهو التقدم المدنى والعمرانى الذى عليه أهل الحضارة الغربية مع كفرهم وتسفلهم أسفل ســـافلين ، ولكن هـــذه قضية أخـــرى تحتاج الى بيـــان وايضاح من خـــلال مفهـــوم وبحث خاص عن الصراع الحضارى فى ظل حقيقة الخلافة .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(٤) الثابت والمتغير فى مجتمع الخلافة

قد يفهم البعض من أبناء الاسلام ـ خطأ وبحسن نية ـ جمود مجتمع الخلافة ورفضه للتطور والتقدم والنمو الحضارى ..

كما أنه من المؤكد أن أكثر المستشرقين من أهل الحضارة الغربية المادية وأكثر المستغربين ممن ينتمون الى قوميات اسلامية ، ولكنهم يدينون بأديان أساتذتهم من المستشرقين ، نقول : أنه من المؤكد أن هؤلاء وأولئك يخدعون ويخاتلون حول هذه القضية فيلبسون الحق بالباطل اما بمكر وخبث وهم يعلمون الحق ، وهذا هو حال أكثر المستشرقين ، واما بجهل وعمى وضلال ، وهذا هو حال أكثر المستغربين .

أنهم يقولون : ان مجتمع الرب الذى فرضته الكنيسة على الحياة الاوربية فى عصورها الاولى كان خاليا من التقدم ومحروما من التطور ومانعا للاخذ بأسباب الحضارة . وذلك ـ حسب زعم الكثير منهم لان التعاليم الالهية والانظمة الدينية تحتم على أهلها الاستمرار عليها خلال العصور ، وتوجب عليهم الثبات عليها خلال الزمان ، وتمنع التغير والتطور بزعم أن التغير والتطور فى الحياة التى رسمها الدين للناس كفر وخروج من الايمان ، وفسق ومروق من الدين ، فلما فرضت الكنيسة وأعوانها وأتباعها من الحكام والملوك أسلوب الحياة الدينى خلال القرون الاوربية الوسطى منع ذلك الحضارة الاوربية المسيحية من التقدم الحضارى خلال هذه القرون .

ولذلك كان على الاوربيين لكى يسلكوا سبيل التطور والتحضر أن يتخلصوا من الدين أولا وأن يتحرروا من الكنيسة ثانيا . ومن ثم يملكون حرية التغيير والتطوير والتقدم .

وقد حدث هذا فعلا ، فلما نجحوا وتحرروا من الكنيسة ، أصبح التطور هدفا رئيسيا للحياة الاوربية يعمل له وبه الحكام والعلماء والقانونيون والتقنيون والتجاريون والزراعيون وجميع فئات المجتمع ومهنه • فالدين اذن ضد التقدم والتطور • والتحضر لا يتم الا بهدم الدين والا بالتخلص منه ومن رجاله ، كل هذا حسب زعمهم طبعا •

لقد أصبح التطور هو الغاية الاولى للحياة الاوربية ، وللحضارة الغربية المعاصرة ، بل صار التطور عندهم هو الغاية فى كل جانب من جوانب الحياة ، سواء كان فى جانب المدنية أم فى جانب الثقافة • وبمصطلح الخلافة نقول : سواء كان فى جانب العبودية أم فى جانب السيادة •

ويلبس المستشرقون وأتباعهم من المستغربين الحق بالباطل ليخدعوا أبناء الاسلام وشعوبه ،حين يزعمون ويروجون لقول باطل ، وهو أن الالتزام والتقيد بتعاليم الدين والمحافظة على مجتمع الخلافة ورفض تغييره ، هو السبب فى تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الذى سبقهم بقيادة الغرب المادى بأشواط بعيدة •

ويزعم المستغربون أن الفرد العربى المسلم فى هذا العصر يجد نفسه فى أزمة فكرية محورها كيفية التنسيق والمواءمة بين روح عصره وبين تراثه الذى ورثه من أجداده فى خطة تنسيقية توليفية شاملة ، وهو اذ يكون بازاء تحقيق هذا الهدف ، لابد أن يرفض أن يعيش عالة ومتسولا ومقتاتا على فئات الغرب أو الشرق ، كما يجب عليه أيضا أن يرفض العكوف متقوقعا منعزلا عن الحضارة الغربية المتقدمة ، يلوك الماضى ويجتر المكروه المعاد •

وحسب زعم هؤلاء المستغربين فان الغربة الاليمة التى يحس بها المثقف العربى ، تكمن فى تمزقه بين اختيارين ، لا يعرف كيف يوفق بينهما، حيث يجد نفسه بين طريقين :

اما أن يختار حياة حقيقية مسايرا بذلك واقع العالم ممتزجا مع مشكلاته وأزماته مشاركا بفعالية فى البحث عن منافذ النجاة ووضع الحلول، ومسهما اسهاما فكريا وحضاريا مؤثرا ، وفى هذه الحالة عليه أن يضحى بانتمائه الى حضارته وتراث آبائه .

واما أن يختار الاحتفاظ بهذه الاصالة وبانتمائه الى تراثه وحضارته القديمة ، مضحيا بالفاعلية والنشاط والمساهمة الواقعية فى بناء الحضارة الانسانية المعاصرة المتمثلة فى حضارة الغرب .

وأمام هذا التخيير ، يرجح الشباب اختيار الواقع والمشاركة والمساهمة ، حتى ولو كان بالتضحية بتراث الاباء والاجداد .

لكن الاستاذ الدكتور زكى نجيب محمود يقدم لهؤلاء الحائرين الحل الذى عثر عليه فى كتابه « تجديد الفكر العربى » وهو يرى — حسب وهمه — أنه جمع بهذا الحل بين المساهمة الفعالة فى الحضارة المعاصرة ، مع مسايرة العصر من ناحية ، وبين الاحتفاظ بتراث الاباء والانتماء العربى من ناحية أخرى ، حيث ينتهى الى ضرورة التجديد فى الفكر العربى بالانتقال من القديم الى الجديد ، والتجديد الذى يعنيه الاستاذ الدكتور مجدد الفكر العربى هو تجديد المحتوى وليس تجديد الاطارات أو القوالب الفكرية . كما يرى أنه من الضرورى شمول التجديد لكل جوانب الثقافة .

هذا مثل لتلبيس المستغربين — وهذا على رأسهم — فى عالمنا الاسلامى على أنفسهم وعلى الناس .

والحقيقة أن ما أسماه بأزمة المثقف العربى المعاصر أمر لا وجود له ، الا فى حالة خلو قلب هذا المثقف من الايمان بالله وباليوم الاخر وبسائر مبادىء وأصول الاسلام ، والا فى حالة فراغ عقله من عقيدته ، وجهله بشريعته ، حيث تعشش فى مثل هذا القلب الخرب الافكار المادية وأباطيل الحضارة الغربية بمفاهيمها الموروثة ، كردود فعل لظلم الكنيسة وتعنتها ، وحجرها على عقول العلماء والباحثين واستخفافها بعقول الناس فى عصور الظلام الاوربية التى كانت معاصرة لعصور النور فى الحضارة الاسلامية • فالازمة اذن مستوردة من الغرب والحل مستورد منه كذلك •

أما فى الاسلام فلا يوجد هذا الالجاء الى أحد الاختيارين السيئين ، أو الذى أحلاهما مر ، ولا أثر لهذا الموقف على الاطلاق بالنسبة لمن يفهم دينه ويعرف عقيدته من المسلمين ، لا من الناحية النفسية ولا من الناحية المنطقية أو المعرفية •

وبيان ذلك يكمن فى حقيقة الخلافة •

فالرد على صاحب تجديد الفكر العربى يكمن فى التذكرة بما سبق أن ذكرناه من أن الحضارة تراكمات لنتائج الفاعلية الانسانية فاللبنة الحضارية فى البناء الحضارى هى الفعل الانسانى • والفعل الانسانى منذ وجد الانسان على ظهر الارض ينقسم الى نوعين متمايزين وسيظل هكذا الى قيام الساعة :

أولهما هو الفعل الذى يتعامل به الفاعل مع ربه الذى يخضع ويدين له ومع الانسان من خلال عقيدته ودينه •

وثانيهما هو الفعل الذى يتعامل به الفاعل مع الاشياء والاحياء فى

الارض • (والاحياء هنا يستثنى منهم طبعا الانسان ، حيث أن تعامل الانسان مع أخيه الانسان يدخل النوع الاول) •

وهذا التقسيم ليس قاصرا على الانسان وفعله فى مجتمع الخلافة لله عز وجل الذى يقوم على العبودية لله وحده والسيادة فى الارض ، لا ، بل هو فى كل مجتمع بشرى يمكن أن يوجد على ظهر الارض الى ما شاء الله • مهما اختلفت الازمان والامكنة والحضارات •• وقد تختلف التسميات ، فقد علمنا أن الكثير من الغربيين يفرقون بين الجانبين : الثقافى والمدنى فى الحضارة ، لان الجانب الثقافى يقوم على علاقة الانسان بالمادة وبالاحياء الاخرى •

فما من حضارة الا وتقوم على عقيدة فى الكون والالوهية والانسان ، وينتظم بحسب هذه العقيدة الجانب الثقافى ، كما أنه لابد أن يكون فى كل مجتمع تشريعات وقوانين لتعامل الانسان مع الانسان تختلف تماما عن تلك التى تنظم تعامل الانسان مع الكائنات والاشياء الاخرى ، وهذا هو الجانب المدنى •

فكل مجتمع انسانى ، مسلما كان أم كافرا ، هو مجتمع خلافة ، ويتضمن جانبى العبودية والسيادة بينما الذى غالبا ما يتبادر الى الذهن هو أن جانبى العبودية والسيادة هما لمجتمع الخلافة الاسلامى فقط • وهذا خطأ ، لان العبودية والسيادة هما وجها الحضارة الانسانية سواء أكانت الحضارة اسلامية أم كانت جاهلية •

فالمجتمعان : الاسلامى والجاهلى ، كل منهما مجتمع خلافة ، ويتضمن كل منهما العبودية والسيادة ، والفرق بين الاسلامى وغير الاسلامى يكمن

فى أن العبودية فى المجتمع الجاهلى لغير الله ، بينما العبودية فى المجتمع الاسلامى لله عز وجل .

ومنكرو وفلاسفة الحضارة والتاريخ فى الغرب المادى ، عندما يسمون جانب العبودية بالجانب الثقافى وجانب السيادة بالجانب المدنى ، لا يتخلصون هم ومجتمعاتهم المادية الكافرة بالله عز وجل من العبودية مطلقا . لان العبودية فى حياة الانسان أمر جبرى ، لكن الجانب الاختيارى فى حياة الانسان يتمثل فى صرف هذه العبودية لله وحده أو صرفها لغير الله عز وجل . فالحضارة التى تقوم على العبودية لله عز وجل ، تقوم بالضرورة على العبودية لغيره .

ومن ثم يكون مجتمع الشرك والكفر مجتمع خلافة أيضا ، ولكنه خلافة لغير الله .

ودليل ذلك أن الله عز وجل وصف الانسان بأنه خليفة فى الارض دون تفرقة بين المسلم والكافر فى ذلك . كما أن الانسان خليفة فقط بالجعل والجبر ، ولكنه خليفة لله عز وجل ، أو خليفة لغير الله باختياره ، أى أن الله جعله بمقتضى الجبلة والخلقة خليفة ، ثم تركه على الارض مختارا حرا فى اختيار الذى يكون خليفة له . فكل انسان خليفة : فردا كان أم مجتمعا ، بيد أن المسلم يجعل من نفسه خليفة لله ، والمشرك يجعل من نفسه خليفة لغير الله أى للطاغوت .

فاذا عدنا الى القضية المزعومة ، قضية تعارض الدين بثباته مع التطور والتقدم ، تذكرنا اجمالا ما سبق أن أثبتناه تفصيلا ، وهو أن تحقيق العبودية يكون بالعمل وفق منهج الدين (بالنسبة للمجتمع الاسلامى) ، ووفق مبادىء وأصول الثقافة (بالنسبة للمجتمع الجاهلى) لان ما يسمونه بالجانب الثقافى فى المجتمع الجاهلى هو دينهم .

وتحقيق السيادة يكون بالعمل وفق نتائج العلم التجريبى ومقتضيات التقنية • فما يسمونه بالتقدم التقنى والصناعى هو توسيع سيادة الانسان فى الارض •

وفعل الانسان فى جانب العبودية أو فى الجانب الثقافى يختلف تماما عن فعله فى جانب السيادة أو فى الجانب المدنى ؛ وذلك من حيث الاحــوال الآتيـــة :

١ ــ الذى يتعامل معه الانســان •

٢ ــ الهــدف من التعــامل •

٣ ــ ضوابط التعامل وتشريعاته •

٤ ــ حالة الانســان الفاعل •

فبالنسبة للعبودية يتعامل الانسان مع ربه ، ويتعامل مع أخيه الانسان من خلال علاقته بربه • بينما هو يتعامل من خــلال السيادة مــع الاشياء والاحياء فى الارض •

وبالنسبة للهدف من التعامل يتحدد هدف الفاعل فى جانب العبــودية فى تعبير ذاته واخضاعها لربه (لله عز وجل وحده فى الاسلام وللحــاكم أو السلطة أو البرلمــان أو أى طاغوت آخر فى غيره) وهذا الخضــوع للرب المعبود يتم اما مباشرة من خلال علاقة الفرد بربه مباشرة ، أو بطريق غير مباشر من خلال علاقة وتعامل الفرد مع غيره من بنى البشر ، حيث يتعامل معهم المسلم حسب شرع الله ومنهاجه ، ويتعامل غير المسلم حسب الشرائع والمناهج الوضعية •

أما بالنسبة للسيادة ؛ فالامر معكوس تمــاما ، حيث يتــوجب على الانسان تسخير غيره من أشياء وأحياء غير بشرية له ، أى يحقــق سيادته

عليها ، أو هكذا يجب أن يكون هدف الانسان فى تعامله مع الاشياء والاحياء غير البشرية فى الارض ، أى أن هدف حركة الانسان فى العبودية مختلف عن نظيره فى السيادة .

ولا شك أن الاختلاف بين جانبى العبودية والسيادة بالنسبة للحال الاول والثانى ،يستتبع بالضرورة اختلافا فى الضوابط والتشريعات المنظمة لعلاقة الانسان مع ربه ، ثم مع الانسان ، عن تلك التى يتعامل بمقتضاها مع الاشياء والاحياء غير البشرية . وهذا ما نجده ، سواء فى الشريعة الاسلامية ، أو فى الشرائع الوضعية .

أما الاختلاف الرابع بين أفعال العبودية وأفعال السيادة فهو فى حال الانسان الفاعل حيث يكون فى مجال العبودية خاضعا ذليلا خائفا راجيا ضعيفا فقيرا الى الله عز وجل بالنسبة للمسلم ، ويكون حاله كذلك ، أو قريبا منه بالنسبة للكافر أو المشرك ازاء القوة العليا التى يدين بها أو بالنسبة للسلطة اعليا التى يخضع لها فى مجتمعه ، وفى نفس الوقت يكون متساويا مع سائر الناس فى الاسلام ، أو هكذا يجب أن يكون حال الانسان فى هذا الجانب (المعلوم باستقراء واقع الاحداث التاريخية القديمة والمعاصرة أن ضياع حقوق الانسان : حياته وعرضه وماله وأرضه ومصيره منتهكة ومهدرة عندما يتولى قيادة الارض الكافرون . حتى بالرغم من اعلان حقوق الانسان ، فلا مساواه حقيقية بين البشر الا فى ظل حكم الله ، وعندما يتولى قيادة الارض خلفاء الله . أما والحال غير ذلك ، عندما يتولى قيادة الارض خلفاء الشيطان والهوى والطاغوت ، فليس سوى الافساد وسفك الدماء)[1] .

---

(١) اكتب هذا أثناء هدم اليهود لبيروت على أهلها وغزو الحبشة لارض الصومال وابادة روسيا لشعب أفغانستان ومواضع أخرى يتم فيها سفك دماء المسلمين ، فقط دماء المسلمين . فبينما كانت الخطط العسكرية فى حرب جزر انولكلاند تقوم على اراقة أقل قدر ممكن من الدماء فان الحرب ضد المسلمين تخطط على أساس الابادة الجماعية .

بينما يكون حال الانسان الفاعل حيال الاشياء والاحياء غير البشرية قويا عنيفا متسلطا مسخرا مستخدما قاهرا ، وكل ما يدخل فى معنى السيادة من أحوال ، أو هكذا يجب أن يكون حال الانسان حيالها •

ولقد كانت مشكلة التعارض بين الدين والتقدم العلمى فى أوربا خلال العصور الوسطى بسبب خطأ وقعت فيه هذه الحضارة ، وهو أنهم استخدموا منهجا خاطئا لتحقيق العبودية ، حيث حرفوا الانجيل وأعملوا فيه عقولهم وتجربتهم البشرية المحدودة القاصرة ففسدت شريعتهم وفسد جانب العبودية لله ، ومن قبل حرف اليهود التوراة التى هى شريعتهم[1] ، ومن ثم فسد جانب العبودية فى حضارتهم ، فوقعوا فى الشرك وأصبح الناس عبيدا للكنيسة والملوك وللاقطاعيين •

وفى نفس الوقت تدخلت الكنيسة فى العلوم الطبيعية ففرضت على الناس منطق اليونان ونظريات باطلة فى الفلك والطب وفى سائر العلوم الطبيعية ، ومنعت البحث العلمى الحر ، وحرمت العلماء من استخدام المناهج العلمية الصحيحة ، هذا مع العلم أنه من المفروض ألا يكون لرجال الدين دخل فى هذا الجانب ، لان الله عز وجل فوض الانسان فى هذا الجانب الى علمه وخبرته وتجربته • ومن ثم جمدت الحضارة الاوربية فى الجانب المدنى ، وفشل الانسان الاوربى فى القرون الوسطى فى تسخير الاشياء والاحياء غير البشرية لنفسه ، بل انه عجز حتى عن معرفة هذا الهدف والسعى له • فلم يعرف أنه يجب أن يبحث فى الطبيعة بقصد تسخيرها الا فى مطلع العصر الاوربى الحديث ، وبتأثير العلوم والحضارة الاسلامية•

ونتيجة لموقف الكنيسة من العلم والعلماء والصراع الذى قام بين رجال الدين وبين العلماء الذين أخذوا المنهج التجريبى عن الحضارة

---

(١) أى شريعة الكنيسة .

الاسلامية وحاولوا تطبيقه ، نشأ الزعم الخاطىء القائل بأن الدين مانع من التقدم الحضارى • وهذا تعميم من قائليه مخالف للمنهج الصحيح للتفكير، فليس الدين بالمعنى العام الشامل هو الذى يتعارض مع العلم ويمنع التقدم ، وانما هى الكنيسة ودين الكنيسة فقط لان الدين الصحيح (الاسلام) قد بين لنا الله فيه أن جانب العبودية يتحقق بما جاء به الوحى، وجانب السيادة قد فوض الله عز وجل فيه الانسان الى عقله وبحثه وخبرته وتجربته •

ونتيجة للالتزام بالوحى ، كمنهج للعبودية ، وبالمناهج العلمية الصحيحة ، كمنهج للسيادة ، سما المسلمون فى ظل الحضارة الاسلامية أخلاقيا وانسانيا ، وفى نفس الوقت تقدموا مدنيا وعلميا •

al-maktabeh
مكتبة المهتدين

(٥) غاية الانسان فى الحياة بين التوحيد الاسلامى وعقائد الشرك والكفر والمادية

من المعلوم بالضرورة أن الكائن الحكيم أو العاقل لا يفعل فعلا الا لحكمة أو لغاية ، ومن ثم فالفعل ليس الا وسيلة لتحقيق غاية أو حصول حكمة •

وهذا الامر ينطبق على أفعال الانسان — باعتباره كائنا عاقلا — سواء كان المقصود بالانسان ، فردا أو مجتمعا أو أمة •

واذا كانت الحضارة حصيلة انتاج الفاعلية الانسانية المتمثلة فى مقوماتها الثلاثة : الارادة المختارة ، والاستطاعة المنفذة والعلم الهادى والموجه لهما ، فانه لابد أن يكون لفعل الانسان — فردا أو مجتمعا أو أمة — غاية وهدفا • وهذا معلوم بالنسبة للفرد ، وكذلك بالنسبة للمجتمع أو الامة حيث لكل جماعة — كبرت أو صغرت — ارادة جماعية أو اختيار جماعى يجمع عليه أكثر أفراد المجتمع . ومن ثم تتوجه قرارات الدولة وتخطيطاتها وأفعالها نحو هذه الغاية العامة المعلنة وهذا فى شتى العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية • وهو ما يعبرون عنه حديثا بالنظم الاجتماعية ، وما العادات والتقاليد والامال والطموحات السائدة فى مجتمع ما الا تعبيرا عن اختيار دائم ومستمر للارادة الجماعية للمجتمع •

وبالنسبة لنهضة حضارية لامة من الامم أو لمجموعة من الامم يجمعهم اتجاه حضارى واحد فلابد أن يسبق بروز هذه النهضة حدوث ما أسماه الاستاذ مالك ابن رحمه الله تعالى الارادة الحضارية عند هذه الامة • أى أنه لابد أن تختار هذه الامة النهضة الحضارية كهدف وغاية

تسعى اليها • ثم يتبع هذا الاختيار توظيف استطاعات الجماهير لتحقيقه بتوجيه العلم والاستفادة منه الى أقصى درجة ممكنة فليست الحضارة الا نتاج العمل والعلم •

ولا خلاف فى أن كل الامم تحتاج — لتحقيق النهضة الحضارية — الى هذه المقومات ، وذلك على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع والامة أيضا ، ويستوى فى هذا الامة المسلمة والامة غير المسلمة على السواء •

بيد أن الفرق الجوهرى والاساسى بين الامة المسلمة المتحضرة أو الناهضة حضاريا ، وبين الامة غير المسلمة المتحضرة أو الناهضة حضاريا ، انما يتمثل فى الهدف أو الغاية من تحقيق هذه النهضة ومن اقامة الحضارة بصفة عامة ، وهذا الاختلاف فى هدف الحضارة يؤدى الى بالضرورة الى اختلاف فى مفهوم الحضارة وصفتها ووجهتها ومقوماتها ومكانة العلم من كل منهما • لان اختلاف الغايات يؤدى الى اختلاف الوسائل والمناهج المؤدية اليها • قال تعالى مبينا الاختلاف الغاية بين المسلم والكافر فردا أو مجتمعا (ولكل وجهه هو موليها فاستبقوا الخيرات — ٤٨ البقرة) ويمكن أن يكون هذا الحكم بالنسبة للحضارات فنقول بأن لكل حضارة وجهة تتجه اليها • نعنى بها الاهداف البعيدة والغايات الاعلى لكل حضارة •

فالمسلم — فردا كان أو مجتمعا أو أمة — يدور فى أفعاله اليومية والتاريخية حول مركز معين • هذا المركز يرتبط أوثق الارتباط بعقيدة التوحيد •

فالايمان بالله واليوم الآخر — حسب عقيدة التوحيد الاسلامية — هو السبيل الوحيدللوصول الى التفسير الصحيح لمعنى الحياة ولهدف الوجود الانسانى ، والحكمة من خلق المخلوقات بعامة والانسان بخاصة •

أما فى ظل عقائد الشرك ، وتعنى بها العقائد التى تقر بوجـــود الاله واليوم الآخر ولكن ليس حسب عقيدة التوحيد الاســـلامية ، كاليهـــودية والنصرانية والبوذية وسائر الاديان الشرقية ، فان أهل هذه العقائد يثبتون للحياة معنى وللوجود الانسانى هـــدفا ولكنهم يخطئون المعنى الصـــحيح للحياة ويعدلون عن الهدف الحقيقى لوجود الانسان .

أما الكافرون والملاحدة ، ونعنى بهم الذين ينكرون وجـــود الاله أو هؤلاء الذين يقرون بوجوده ولكنهم ينكرون اليوم الآخـــر وعالم الغيب ، فهؤلاء لا يعـــرفون للحياة معنى مقنعا للعقل ومرضـــيا للنفس ، كما أنهم يعجزون عن تحديد هدف أو غاية للانسان تليق بانسانيته وترتفـــع به عن مستوى الكائنات الحية الاخرى[١] .

وهذا ما قاله الفلاسفة الكافرون والملاحدة قديما وحـــديثا ، منهم فى القديم أبيقور الذى قال (ان الحياة مهزلة فيها من الخبل ما يستحيل معه أن يكون قد أبدعها عقل الهى)[٢] ومن ثم جعـــل أبيقور هـــدفه من الحياة تحصيل اللذة والبعد عن الالم ، ولمـــا كان تحقيق هذا الهدف أمرا مستحيلا بمعنى أنه يستحيل أن يحيا الانسان حياة كلها لذة وخالية من الالم ، صرح أبيقور بأن الحياة مرض والموت شفاء منه قال (ان الموت لهو الطبيب الرفيق الذى يشفينا من أشد الامراض فتكا وهو مرض الحياة)[٣] .

---

(١) من الكتب التى أثبتت عجز الماديين والملاحدة عن الوصول الى معنى للحياة كتاب جيمس مانتو بعنوان (المادية الحـــديثة وعلاقتها بـــكل من الدين واللاهـــوت) . عن كتاب دروس فى الفلسفة للدكتور محمد كمال جعفر ص٤٦

(٢) أعلام الفلسفة ص ١٥١ عن دروس فى الفلسفة .

(٣) المصـــدر الســـابق .

ومنهم فى الحديث شوبنهور الذى صرح بأنه كان يفضل أن يترك فى السكينة وسلام العدم من أن يوجد فى هذه الحياة التى ليس لها أى مغزى أو معنى سوى ما بها من شقاء حتى أنه يقـــرر أنه (من الواضـــح أن كل انسانكان سيرفض بالطبع قبول هذه المنحة اذا قدر له أن يذوقها « كعينة من قبل ») ودليله على ذلك ـــ حسب زعمه ـــ أنه ليس للحياة هدف واذا كان للانسان فيها هدف فانه فى نظر كثير من الناس السعادة وتحقيقها أمر مستحيل •

يعبر أبيقور وشوبنهور بهذه الاراء تعبيرا صريحا عن موقف الملحدين من الدنيا والآخرة ، فهم يرفضون أن يكون ثمة حياة أخـــرى بعـــد الموت فيضيقون الوجود الانسانى الى حجم حياة الانسان الفرد القصيرة جدا بالنسبة لعمر الزمن فيصبح الوجود الانسانى تافها فلا تزيد قيمته وأهميته عن قيمة وأهمية حياة الحيوان هذا من الناحية العقيدية والفكرية ، أما من الناحية النفسية فان الواحد منهم يصبح صدره ضيقا حرجا وكأنه قد حبس فى قفص حديدى ضيق • وبذلك تفقد الحياة الدنيا عندهم معناها ومغزاها، حيث أن هذه الحياة ليست سوى مقـــدمة نتيجتها الآخـــرة ، فاذا نزعنا النتيجة من المقدمة أصبحت جملة غير مفيدة ، ومن ثم ينتهى الـــكافر الى الحيرة والتخبط وتسيطر عليه النظرة التشاؤمية حتى أنه يرى العدم خير من الوجود التافه فى هذه الحياة بذلك الحياة الدنيا بعد انكار الآخرة •

ولكن رفض هؤلاء الكافرين للحياة الدنيا هو على مستوى (الفكر فقط دون مستوى السلوك • أى أنه يثبته كنتيجة أدى اليها فـــكرة الضال فقط لكنه لا ينفذ هذا الرفض عمليا بالانتحار مثلا • فهـــو اذا كان يزعم أنه جاء الى هذه الحياة الدنيا دون اختيار منه فان الواقعيشهد بأنه يملك الحرية فى

أن يخرج من الحياة بالانتحار أو يبقى فيها • أفليس بقاءه فيها دليلا على حبه للحياة وايثارها على الموت أو ما يسميه بالعدم ؟ •• وهذا هو ما رد به الله عز وجل على أمثال هؤلاء الذين لا يقولون مثل هذه الاقوال الا لاضلال الناس فقط وصدهم عن سبيل الله قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وانه يحى الموتى وانه على كل شىء قدير ، وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفة ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق — ٣—٩ الحج)•

وهذا ينطبق على الكافر والملحد الذى يكذب فعله قوله ، فهو يزعم أنه جاء الى الحياة الدنيا مجبرا والعدم خير منها مع أن الله عز وجل قد خير عبده المبتلى بين الدنيا والاخرة ولكن هذا الضال المضل يزعم انه ليس ثمة آخرة وأن الدنيا عذاب وشقاء وهو لم يستشر قبل قدومه اليها أو هو لم يرض بها ، لذلك يقول المولى عز وجل بعد ذلك (من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والاخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ، وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد — ١٥—١٦ الحج) ومعنى « فليمدد بسبب الى السماء » أى فليعلق حبلا فى سقف بيته ليشنق نفسه منتحرا وهذا موجه الى من يظن فى الله أنه لن يعطيه الدنيا

ولا الاخرة وهو حال الكافر الملحد الذى عبر عنه أبيقور فى القديم وشوبنهور فى الحديث • فلماذا لا يصدق فعله قوله وينتحر ؟• ولماذا لا يشنق نفسه ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟•

هذان مثلان لحيرة الكافر وتخبطه وضلاله بسبب عدم ادراكه بتفكيره العقلى المحض الى معرفة معنى الحياة وهدف الانسان الوجودى فيها •

أما المشرك فانه — مثل الكافر — لا يعرف الهدف الحقيقى ولكنه يقرر لنفسه هدفا متوهما أنه الهدف الصحيح ويقر بوجود معنى للحياة لكنه لا يصل الى المعنى الحقيقى بل يصل الى معنى خاطىء تماما وذلك لان عقائد الشرك كلها تعبير عن أفكار ومبادىء وهمية أو خرافية أو أسطورية لا تمت الى الحقيقة بصلة أو هى أفكار حقيقية ممزوجة بأخرى وهمية أو خرافية ومن ثم توصل الى أهداف وغايات وهمية للانسان فى هذه الحياة (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا — ٣٩ النور) •

ونأخذ مثلا لذلك الفيلسوف المسيحى ديكارت الذى نادى بأن يكون الهدف من أفعال الانسان ومعرفته هو معرفة قوانين الطبيعة حتى يتمكن الانسان من السيطرة عليها • اذن فالهدف البعيد للانسان هو السيطرة على الطبيعة •

وقد ظل هذا هدفا أعلى للحضارة الغربية حتى اليوم وان كان هدفا ماثلا فى أذهان العلماء والتكنولوجيين أكثر من غيرهم من المفكرين والفلاسفة ، حيث أن الفيلسوف أو المفكر لا يستطيع أن يتوقف بالاسئلة التى يطرحها عقله عند حد معين •

فهدف العلماء والتكنولوجيين ليس هو الهدف النهائى للانسان حيث لا يلبث فى نطاق الفكر والعقيدة أن يتحول الى وسيلة ويجد المفكر نفسه أمام سؤال جديد هو : ولماذا نسيطر على الطبيعة ونسخرها ؟ فاذا جاءت الأجابة : لكى نستمتع بحياتنا ، انهالت بعد ذلك الاسئلة ؟ ولماذا نستمتع، وما المتعة ؟ وهل هى السعادة ؟ وما السعادة ؟ وهل يمكن تحقيقها فى هذه الحياة ؟• وهكذا •••• ومن ثم ينتهى الانسان بفكرة الى نفس الاسئلة الملحة التى حاول الملحد أو الكافر الهروب منها وبذلك تصبح فكرة تسخير الطبيعة كغاية للعلم والتقنية غير صالحة لان تكون هدفا وجوديا كافيا للانسان • فما لم يرتبط هذا الهدف بالوجود الاخروى ويؤدى اليه فلن يكون هدفا صحيحا ولا غاية حقة أو كافية لان تفرق بين الانسان والحيوان لان أحد الفروق الجوهرية بينهما هو خلود الانسان وبقاؤه بعد الموت ومن ثم لا يمكن أن يكون هدف الانسان من الحياة قاصرا فى أثره ومدلوله على الحياة الدنيا فقط والا أصبح هدفا فى نطاق طبيعة الانسان البشرية المماثلة للحيوانية • وهكذا تحيد عقيدة المشركين بهم عن الوصول الى الغاية الحقيقية للوجود الانسانى •

وبمعنى آخر نقول أنه فى ظل حضارة مادية ملحدة كافرة كالحضارة الغربية المعاصرة رفضت الايمان بالغيب وباليوم الآخر وقامت على الشك فى وجود الله عز وجل • نقول : مثل هذه الحضارة تقدم لنا الاجابة على السؤال : ما هو الهدف من الوجود الانسانى وما هى الغاية العليا من الفعل الانسانى العام المتمثل فى اقامة الحضارة بعامة وفى التقدم العلمى بخاصة؟ تجيب بأنه التطور • فاذا تساءلنا وما هو الهدف من التطور ؟ قالوا : المزيد من التطور • ولا شىء غير ذلك •

وهذا هو بعينه التيه والضياع الذى انتهت اليه الحضارة الغربية لاننا

عندما تثبت التطور لابد أن تثبت معه الى ماذا يتطـور الانســان وبدون اثبات الهدف الذى يجب أن نصل اليه بالتطور تكون مسـيرة الحضـارة الغربية بلا وجهة محددة أو هدف معين ، ضياعا فى ضـياع هـذا بالنسبة للانسان كنوع •

أما بالنسبة للفرد فلا يمكن أن يكون التطور غاية له فى حياته القصيرة لان التطور لا يتم الا من خلال العمل التاريخى ولا شك أنه من حق الجيل الواحد والفرد الواحد أن يسأل عن الهدف من حياته والغاية من وجـوده القصير وهنا تعجز الحضارة الغـربية بمفكريها وفـلاسفتها وعلمائها عن تقديم الاجابة الصحيحة على هذا السؤال بل انهم يعجـزون عن اثبـات وجود معنى للحياة أو هدف لها كما مر بنا •

ان التطور فى الحضارة الغربية ليس هدفا لذاته بل هو وسيلة لهدف أعلى منه وهو تسخير الطبيعة وتحقيق السيادة عليها أكثر وأكثر •

فما الهدف الاقصى للحياة الغربية حسب عقائدها المادية ؟•

هذا ما سنفصل فيه القول فى الصفحات التالية •

(٦) أهداف البشرية فى ظل العقائد المـادية

تقوم العقائد المـادية على أساس انـكار الغيب ، ويتضمن انـكار الغيب انكار البعث والحياة الباقية الخالدة •

وعندما يحيا الانسان فى مجتمع أو أمة تنكر اليوم الآخر ، وترفـض تنظيم الحياة وفق هذا المبدأ ، فانهم بذلك يفقدون العامل الرئيسى لقيـام حضارة انسانية حقة ، وأحد الاسس الرئيسية التى يحافظ بها الانسان على هذه الحضارة ، ويعمل على نموها واستمرارها جيلا بعد جيل •

فمن الضرورى ـ لاستمرار الحضارة ونموها ، ولسمـو الانسـان روحيا ، وتقدمه ماديا وعلى مستويات الحياة كلها ، فـردية واجتماعيـة ودولية ـ أن يتوحد الهدف لتتوجه اليه كل الفاعليات الانسانية ، ومن ثم يتحقق بتوحيد الهدف التوازن بين النـواحى والمطالب الروحيـة ، وبين النواحى والحاجات المـادية البشرية وهذه نتيجـة أولى ، كما يتحقـق التوازن بين الفرد والمجتمع من جهة ، وبين المجتمع الواحـد والمجتمعات الدولية منجهة أخرى ، وهذه نتيجة ثانية •

والنتيجة الثالثة التى لا تقل أهمية عن سابقتيها ، هى المحافظـة على حصيلة الجهود البشرية عبر الاجيال وخلال المجتمعات المختلفـة فى الزمان الواحد ، وعدم ضياعها وتسربها هدرا ، فـكم حضـارة قامت ثم بادت وضاعت واندثرت ، مما حتم على أهل الاجيال التالية أن يبدأوا رحلتهم نحو الكمال الانسـانى المتمثل فى الخـلافة من أول الشـوط ، فكثيرا ما بادت مجتمعات وحضارات بعلومها ومعارفها وأسرارها ، فيبدأ من بعدهم شوطهم الحضارى من جديد •

ويقرر القرآن الكريم أن العامل الاول والرئيسى فى انهيار الحضارة وفنائها ، هو تفريط أهلها فى العبودية ، الامـر الذى يؤدى بالضرورة الى فقد الانسان ـ فى مسيرته الحضارية ـ للهدف المطلق الذى ينبـغى أن تتوجه اليه الطاقات والفاعليات ، وأساس هذا كله هو الشرك بالله عز وجل والكفر به وباليوم الآخر ، بطغيان العقائد المـادية التى تنسى الانسـان آخرته أو تنكرها • فيجهل الانسان الهدف المطلق والابدى من وجـوده ، ولا يعرف الغاية من حياته الدنيا ، ومن ثم يبحث له الفلاسـفة والمفكرون عن أهداف وغايات بديلة لا تغنيه عن الهدف الحق شيئا • ولا يرضى نفسه الطموحة ، التى خلقها الله عز وجل ، مهيأة لحياة الخلود •

لقد أصابت نفس المسيحى القديم التمـزق النفسى والوجـدانى ، بسبب مفاهيم خاطئة فرضتها الكنيسة عليـه باسم الدين ، ودين الله منها براء ، أهمها وأخطرها هو تخييره بين غايتين متعارضتين عليه أن يسـعى اليهما ، أما الغاية الاولى فهى غاية طبيعيـة للانسـان ، باعتباره بشرا له مطالبه الحيوية الضرورية لاستمرار حياته ، وللابقـاء على نوعـه ، وأما الثانية فهى غايته كانسان يؤمن بالآخرة ، وتتوق نفسه الى حياة الخلود فى الجنة • وبالرغم من أن دين الله الصـحيح يوفق بين الغـايتين ، ويوائم بينهما ، بل يجعل احداهما السبيل الى الاخرى ، الا أن التحريف فى الدين المسيحى أدى الى تصوير الكنيسة للاهـداف البشرية فى الدنيا ، باعتبارها أهدافا شيطانية ، على المسيحى ـ اذا كان يرغب فى الجنة ـ أن يقـاومها ويعزف عنها • ومن ثم أصبح أمامه هدف دنيوى وهدف أخـروى ، وكل منهما يعارض الآخر •

هذا العنت والحرج الشديد الذى وضـع فيه الانسـان الاوربى فى

عصور سلطان الكنيسة ، كان له رد الفعل العنيف بعد تخلصه من هذا السلطان ، متمثلا فى رفض الناس فى أوربا للآخرة وأعمال الآخرة ، مقبلين بكامل طاقاتهم وفاعليتهم على الدنيا وأعمال الدنيا ، منطلقين فى هذا من المفهوم الكنسى الخاطىء ، وهو تعارض الدنيا كهدف للانسان مع الآخرة كهدف آخر ، واستحالة الجمع بين الهدفين • فكان من نتيجة ذلك كله أن قامت الحياة الحديثة والمعاصرة فى مجتمعات الحضارة الغربية على أسس مادية منكرة للآخرة •

ان أخطر أثر لعقيدة الشرك على حياة الانسان هو فقده للهدف الصحيح لوجوده وحياته ، وهذا من أوائل المعوقات الحضارية ، وذلك بسبب ما يحمله هذا الاثر من مفاهيم عقيدية خاطئة كتعارض الدنيا والآخرة وتنازع النواحى الروحية والمادية ، فاذا ما أراد الانسان أن يتخلص من الشرك ومساوئه وآثاره المدمرة حضاريا بغير سبيل التوحيد الاسلامى انتقل من الشرك الى الكفر ، وهذا ما حدث للشعوب الغربية حين ثارت على سلطان الكنيسة •

ولا يستطيع أحد أن يزعم أن كل أهل الغرب يكفرون بالله وباليوم الآخر ، ولكن من المؤكد أنهم جميعا الافراد منهم والجماعات والدول ، يؤسسون مناهج حياتهم ويخططونها على أساس علمانى أى على أساس لا دينى • ومن ثم فهم من الناحية العملية ماديون منكرون لليوم الآخر ، ولا يمنع هذا أن يكون بعضهم ممن يؤمنون بالله وباليوم الاخر حسب عقيدة النصرانية المحرفة ، ولكن هذا الايمان لا يتعدى حدود المعتقد النظرى والمشاعر النفسية الفردية ، فهؤلاء القلة يؤمنون نظريا بشىء ويهدفون عمليا الى ما هو مخالف لهذا الايمان •

وبناء على هذا ، اذا سألنا : ما هو هدف الانسان فى الحضارة الغربية المعاصرة بخاصة وفى المجتمعات الكافرة باليوم الآخر بعامة ؟. فان الاجابة تأتينا جازمة حاسمة بأن هذا الهدف قاصر على الحياة الدنيا فقط ، فهو هدف دنيوى أولا وأخيرا ، ومن ثم ينحط الانسان غائيا الى مستوى الحيوان . وانحطاط الانسان غائيا ينتهى به بالضرورة الى انحطاط مماثل ومواز فى الافعال والسلوك والوسائل على جميع مستويات الحياة البشرية، لان غاية الحياة هى التى يتحدد على أساسها أسلوبها ووسيلتها ومنهجها وطريقها وصيغتها .

وتكمن علة الانحطاط والتسفل فى فصل الدنيا عن الآخرة . لان الكفر باليوم الآخر يحرم الانسان من التطلع الى غاية أبدية مطلقة لوجوده ، ومن ثم لا يبقى أمامه الا التطلع الى غايات دنيوية .

ولما كان البعث والخلود أحد المميزات الجوهرية التى يتميز بها الانسان عن الحيوان ككائن حى ، فان انكارهما ينحط ويتسفل بالانسان فى أفعاله وسلوكه الى مستوى الحيوان حيث تصبح الغايات المطروحة أمام الاختبار الانسانى غايات حيوية محضة تدور فى نطاق بشريته دون انسانيته . لان الخلود خاصة انسانية لا يشارك الانسان فيها الاحياء الارضية الاخرى بينما بشرية الانسان هى خصائص بيولوجية وفسيولوجية يشاركه فيها الحيوان .

والكفر باليوم الآخر ، أو فصل الدين عن الاخرة ، فى مجال الحياة العملية ، يجعلان الحياة الدنيا بلا معنى مقبول للنفس ومرض للعقل عند الانسان ، وعلة هذا فقد الغاية الابدية المطلقة التى لا يرضى بغيرها الانسان السوى الفطرة بديلا ، بحكم فطرته وجبلته التى فطره الله عليها.

فالحياة الدنيا كمقدمة للآخرة ، وكحرث لها ، ليست لعبا وليست لهوا، وانما هى أمر جد وذات قيمة عظيمة فى الوجود الانسانى الممتد الى الخلود، حيث عليهايتوقف مصير الانسان الابدى ، وبعمله فيها يتحدد خلوده ، أما فى الجنة واما فى النار •

والحياة الدنيا — كدار للامتحان والاختبار بالنسبة للانسان — خالية — بهذا الاعتبار — من أى معنى للعب واللهو والعبث والهزل ، لان الاختبار له ما بعده من نتائج ، وهى بالضرورة اما فوز واما خسارة •

فاذا تذكرنا — بالاضافة الى ما تقدم به أن هذا الاختبار مرة واحدة فقط ، فهو لا يعود مرة ثانية ، ولا تؤجل نهايته ، ولا يلغى أثره أبدا ، اذ تذكرنا ذلك ، زادت أهمية الحياة الدنيا فى عقيدة المسلم ، بل تصبح الساعات والدقائق والثوانى فى حياته ذات شأن خطير ، لان هذه الثوانى يترتب عليها فوزه بالنعيم الابدى الخالد فى الجنة • ومن ثم فعليه أن يتوجه بكل همته الى عمل أكبر قدر ممكن من الطاعات التى تزيد من رصيد درجاته فى الآخرة ، وبالتالى يصبح من الجنون والسفه تضييع الدقائق والثوانى فى اللهو والعبث •

هذه هى نظرة المؤمنين بالله وباليوم الآخرللحياة الدنيا •

أما نظرة الكافرين ، فهى على النقيض تماما ، حيث أن كفرهم باليوم الآخر ، واعتقادهم بأن وجودهم منحصر فى هذه الحياة الدنيا فقط ، يسلب منها المعانى الجادة ، والاهداف اللائقة بالانسان ، فتتفرغ الحياة من أهميتها ، فلا يبقى أمام الانسان فيها من غاية سوى اللعب واللهو والزينة واللذة والمتاع •

فليست الحياة الدنيا لعبا ولهوا وزينة ومتاعا . الا اذا نظرنا اليها منفصلة عن الآخرة ، ومبتورة عن مراحل الوجود الانسانى كلها .

وفى هذا المجال ورد ذم الدنيا فى القرآن والسنة . ولعنها الله عز وجل ورسوله عندما تكون هى وحدها غاية الانسان وعندما يقتصر وجوده حسب اعتقاده وسلوكه وعمله عليها .

قال تعالى (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون — ٦٤ — العنكبوت) ففى هذه الاية الكريمة تقع الحياة الدنيا بين أداتى الحصر « ما » و « الا » ومن ثم يفهم منها أن الحياة ليست سوى لهو ولعب ، كما يفهم أيضا ان اللهو واللعب محصور فى الحياة الدنيا وحدها ، وعندما تكون وحدها . ولكن اذا كانت الحياة الدنيا مقدمة لحياة أخرى ، أو اذا أصبحت حسب ايمان الناس وسلوكهم وأفعالهم أسبابا للحصول على الآخرة ، فانها لا تكون لهوا ولا لعبا ، وانماتكون ذات أهمية وجدية وخطورة قصوى . لان المقدمات تكتسب أهميتها من النتائج المترتبة عليها .

فذم الدنيا ولعنها لازم حتمى عندما تنفصل عن الاخرة ، ولا يصدق عليها هذا الوصف عندما ترتبط بالآخرة ، كما أنها لا تصبح لهوا أو لعبا عندما تصبح سببا وعلة لدار الخلود .

والربط بين الدنيا والآخرة لا يكون الا من خلال غاية واحدة للانسان يعمل لها فى الدنيا . ويحققها فى الدنيا ، فيحصل بتحقيقها عليها — أى على نفس الغاية — فى الآخرة . فبالخلافة ترتبط حياتى الانسان الاولى والاخرة برباط وثيق ، ونزع هذه الغاية من عقيدة الانسان وحياته وسلوكه ، ينحط به الى غاية دنيوية بحتة ، فيتسفل ويتساوى سلوكيا وحياتيا مع الحيوان

وأصدق مثال على هذا هو حال انسان الحضارة الغربية المعاصرة الكافرة لاننا اذا استعرضنا حياة الافراد فيها — كلهم أو جلهم — لا نجد لاى منهم غاية مميزة عن غاية الحيوان .

ان جميع الغايات التى يسعى اليها الملاحدة أو الكافرون أو العلمانيون فى الغرب المعاصر . تدور حول معانى متقاربة ، وتلتقى عند شىء واحد هو « المتاح » فهم يعيشون للذة وللرفاهية ولقضاء أوقات ممتعة ، واذا كانوا يكدون ويكدحون خمسة أيام فى الاسبوع ، فلكى يحصلوا على المال الذى يعيشون به ويستمتعون به بقية الاسبوع . وقد عبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى (وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة لهى دار القرار — ٣٨—٣٩ — غافر) .

ويمكن فهم المتاع فى الآية على أنه اللذة الحسية وهى أشكال وأنواع تتنوع بحسب أنواع الحواس البشرية الخمس فالبصر له لذة الزينة والجمال البشرى والطبيعى . والسمع لذته فى استماع الغناء والطرب والموسيقى ، والتذوق لذته الطعام . والشم لذته فى الطيب والعطور والروائح الطيبة ، والاحساس لذته فى شهوة الفرج . ولا تخرج متاع الحياة الدنيا عن هذه اللذات الخمس . ولكن أشدها تأثيرا وأثرا عند أهل الدنيا هما شهوتا الفرج والبطن ، حيث تؤدى كلها اليهما فالشم والبصر والسمع يخدمون ويهيئون لشهوتى البطن والفرج .

فالمتاع ينحصر ويتركز أخيرا فى متاع الجنس والاكل . فاذا كان هذان الامران هما غاية الانسان القصوى فقد تسفل عن مستوى الانسانية المكرم السامى الى مستوى الحيوان ولو فى مجال السلوك فقط ولذلك قال الله عز وجل موضحا هذه الحقيقة الواقعة فى حياة الناس (ان الله يدخل

الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم — ١٢ محمد) فبين سبحانه أن الذين جعلوا هدفهم فى الآخرة ، وعملوا له فى الدنيا الصالحات ، سيوصلهم الله الى هدفهم فى الدنيا والآخرة ، أما الذين استغنوا عن الاخرة ، وكفروا بها وكذبوا فاقتصرت أهدافهم على الدنيا فقط ، فانهم انحطوا وتسفلوا بذلك سلوكيا وعمليا الى مستوى الانعام ، التى تتحدد غايتها القصوى وتنحصر أهداف حياتها فى الاكل والجنس ، وان كان الانعام تأكل لتمتلأ لحما وتمارس الشهوة لبقاء النوع ، وهاتان غايتان لهما بمقتضى الخلقة والطبيعة • ومن ثم فالانعام تحقق الهدف الذى خلقها الله من أجله، وهى خدمة الانسان ، وباعتبارها مسخرة له أى لغذائه ولركوبه • أما الانسان عندما يكفر بالآخرة ويتسفل ، فانه يأكل ويسرف فى الاكل للمتعة ، ويمارس الشهوة أيضا للمتعة ، ومن ثم فالامر ينتهى به الى أن يصبح أكثر تسفلا وانحطاطا وضلالا من الانعام •

قال تعالى (ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا — ٤٤ الفرقان) وقال أيضا (أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ١٧٩ — الاعراف) •

وقد عدد الله عز وجل الشهوات وأنواع المتاع ووسائلها التى تؤدى الى شهوتى البطن والفرج ، فقال تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المثاب ١٤ — آل عمران) •

وهذه كلها وسائل الى غايات حيوانية محضة ، لانها مرهونة بالزمان

المؤقت فى الدنيا المحدودة القصيرة ، فهو وهم وسراب لزواله يقينا ، بينما أعـد الله للمؤمنين حسن المآب والمتاع الدائم الخالد .

يوضح هذه الحقيقة قول الله عز وجل عن الحياة الدنيا ، كمرحلة زائلة (انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخـر بينكم وتكاثر فى الامـوال والاولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصـفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور — ٢٠ الحديد) .

وهكذا تنحصر غايات أفعال البشر فى حال كفرهم فى أهداف حيوانية محضـة ، مرتبطة بالدنيا الزائـلة المحـدودة التى هى كالنبات الاخضر الذى يعجب المشاهد . الا أنه لا يلبث أياما . الا ويكون حطاما ، فيفقـد مصدر متعته .

ولا يقدح فى هذه النتيجة — ونعنى بهـا تسـفل البشر الى مستوى الانعام سلوكيا — وجـود علماء وباحثين وسـياسيين ومهنيين كالاطباء والمهندسين والزراعيين والمحامين والقضاة والمخترعين، وغيرهم ممن تبدو على أعمالهم صفة الجد ، حيث يقضون أكثر أوقات النهار فى أعمالهم التى ترمى الى تعمير الارض ، وتحقيق السيادة على الاشياء والاحياء ، وتسـخيرها للناس ، لا يقدح هذا الاعتراض فيما نقول ، لان هذه الاعمـال كلها ليست سوى وسائل لغايات وليست هى المقصودة لذاتها فهى جميعا لغاية واحدة، يرمى اليها المجتمع الغربى المعاصر كله ، بل ترمى اليها أمم الحضارة الغربية كلها بلا استثناء . هذه الغاية التى يعملون لها ، والتى يعلنونها بلا مواربة هى الرفاهية أى المتاع .

فالسياسيون يعلنون فى برامج أحزابهم الانتخابية عن هذه الاهداف

وهى تدور كلها حول قضايا اقتصادية وترمى كلهـا الى تحقيق الرفاهيـة والمتاع مثل معدلات التنمية والقضاء على التضخم وتحقيق الضرائب وهى كلها سبل للرفاهية والمتعة .

أما المسـائل العسكرية ، التى ترمى الى ضمان الامن من الاعتـداء الخارجى ، فهى ليست غاية فى حد ذاتها ، وانما هى وسيلة للمحـافظة على المصالح الاقتصادية أيضا .

فالدول العالميـة المعاصرة كالولايات المتحدة الامـريكية والاتحـاد السوفييتى لا يبنون قـوتهم العسكرية لكى يدافعـوا عن أنفسهم بقـدر ما يبنونها لكى يدافعوا عن مصالحهم الاقتصادية فى خارج حـدودهم بل على بعد آلاف الاميال من حدودهم .

والنزاع الايديولوجى القائم بين المعسكرين فى الحضـارة الغـربية المعاصرة ، ليس نزاعا عقيديا ، أو بمعنى آخر ليس صراعا بسبب الاختلاف حول هدف الانسان فى الحياة ، فهما متفقان فى الهدف الاخير للانسـان تماما ، وهو المتاع ، لان كل منهما يؤسس مناهج حياته على أساس انكار أو تجاهل اليـوم الاخر . فلا فرق بينهما فى هذه الناحية ، وانما هو حول الانظمة والتشريعات المحققة للرفاهية للنـاس ، فالشيوعيـون يرون أن النظام الماركسى هو الذى يحقق الرفاهية والقيم عن طريق تحقيق المساواة فى توزيع الثروة المـادية أو هكذا يزعمون ، والرأسماليون يرون أن نظامهم هو الذى يحقق هذا الهدف .

وبين هؤلاء وأولئك أنظمة وسط تأخذ من كل منهما بقدر .

وبصرف النظر عن كذب النظام الشيوعى فى ادعائه ، وثبوت هـذا الكذب بواقع الحياة البائسة الذليلة التى تعيشها الشـعوب فى ظل هـذا

النظام • وبصرف النظر أيضـــا عن ســلبيات النظام الرأسمالى ، فان الاسلام يختلف عنهما معا اختلافا جذريا ، حيث يقوم على أساس الايمان بالله وباليوم الاخر ، ومن ثم يختلف عنهما فى تحديد هدف مطلق أبدى لحياة الانسان • بينما ليس للانسان من هدف فى الحضـــارة الغربية المعـــاصرة بمعسكريها الرأسمالى والشيوعى ، سوى المتاع •

ولذلك نجد أن القضايا السياسية ، فى الغـــرب تدور حـــول حمـــاية الحرية الشخصية وضمانها ، ولا تعنى الحرية الشخصية فى الغرب ضمان أمن الانسان ضد الاعتداء الداخلى سواء من سلطة أم من مجرمين فقط ، بل تعنى حرية السلوك الشخصى فى مجال الشهوات الجنسية بين البالغين، وبذلك تصبح الاهداف العسكرية والسياسية فى خدمة الاهداف الاقتصادية والجميع فى خدمة الرفاهية والمتعة •

وهذا يعنى أن فاعليات الناس على جميـــع المستويات الجمـــاهيرية والحاكمة ترمى الى تحقيق المتعة للناس •

أما قضية التعمير والمهن المشاركة فيه ، فان هذه كلها لا يمكن الحكم عليها فى ذاتها ، اذ أنها وسائل لكسب العيش واستمرار حياة الناس أفرادا ومجتمعات • ومن ثم لا يمكن أن تصبح هذه غايات فى حد ذاتها ، وانما هى وسائل • فاذا كانت الوسائل ترمى الى غاية جادة ، فهى عمل جاد ، أما اذا كانت ترمى وتهدف الى لهو ولعب وزينة ومفاخر وتكاثر فى الاموال والقوة فقط ، فهى— وان بدت فى طبيعتها أنها جادة ولا تتم الا بجهد مضنى وعرق غزير — فانها فى النهاية ، تتصف بحال الغاية ، ولمـــا كانت الغاية هى المتاع بأنواعه وهذه غاية حيوانية ، كانت كل هذه الاعمال كذلك •

ان حصيلة الفاعلية البشرية فى ظل حضارة كافرة باليوم الآخر، تنتهى الى لا شىء ، وهذا هو المصير المنتظر للحضارة الغربية المعاصرة •

ان هذا الجهد البشرى الهائل سيضيع سدى وهباء ، لان الانسان فى هذه الحضارة لا يعرف له هدفا جادا لائقا به كانسان ، حتى يوجه نتائج هذه الفاعلية نحوه • ولذلك فجهده جهد السائر فى الصحراء وراء السراب، ظنا منه أنه ماء • لقد وصف الله عز وجل أعمال الذين كفروا بهذا الوصف • والعلة الجامعة بين المثل والممثل به أى بين السائر نحو السراب وأعمال الكافرين ، هى فقد الغاية المطلقة الابدية للانسان فى أعمال الكافرين • فغايتهم « المتاع » وهم زائل لزوال الدنيا كالسراب •

قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب — ٣٩ — النور) •

فالكافر باليوم الآخر يعمل وهو يضع فى حسبانه أنه سيصل بهذا العمل الى السعادة بالرفاهية واللذة ، وكذلك يعمل وهو يتغافل أو يتجاهل أو ينكر ويكذب أنه سيبعث ويحاسب فاذا وصل الى اليقين « الموت » اذا به يجد أن ما هدف اليه وجعله غايته ووجهته لاعماله كان مجرد وهم وسراب ، وأن البعث حق والحساب حق فما حسبه حقا وجده وهما ، وما حسبه وهما وجده حقا •

وهكذا ننتهى الى أن الاساس الاول للبناء الحضارى والعامل الرئيسى لنموها واستمرارها هو الدين الذى به تتحقق عبودية الانسان لله فى الارض ويتحدد به من خلال هذه العبودية هدفه المطلق والابدى من وجوده •

ولكن اذا كان هذا العذاب الابدى نتيجة الكفر بالله وباليوم الآخر بعد الموت وفى الآخرة ، وهو أمر مفزع حقا أن يخلد الانسان فى النار •

فانها ، وان تكن نتيجة ونهاية عادلة يستحقها الكافر ، الا أنها ليست الشقاء الوحيد الذى سيشقاه ، لان له شقاء عاجلا فى الدنيا •

لقد سمح الله عز وجل للكافر بالتمتع ، وبالمتـــاع فى الدنيـــا باعتباره الغاية القصوى التى حددها لنفسه وسعى اليها ولكنه متـــاع قليـــل ، قال تعالى (قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار — ٨ الزمـــر) ولكن لا يمنع هذا المتاع شقاء الكافر فى الدنيـــا بمعيشـــة ضنكا لان للكفر بالله وباليوم الاخر آثارا فكرية وخلقية ونفسية سيئة على الحياة الانسانية •

(٧) الخلافة هى الغاية المطلقة والابدية للوجود الانسانى فى الاسلام

لا تنفصل الحياة الدنيا فى الاسلام عن الآخرة ، بل يربط بينهما — حسب عقيدة الاسلام — رباط وثيق •

ففى الاسلام ، لا ينتفى التعارض أو التنازع — كما حدث فى النصرانية — بين أمور الدنيا وأمور الآخرة فقط ، بل ترتبط كل منهما بالاخرى بتوازن وأحكام •

لقد اختل التوازن فى اليهودية بين أمور الدنيا وأمور الآخرة وحدث — من ثم — بينهما انقصام مما أدى الى طغيان أمور الدنيا على أمور الاخرة حتى تلاشت هذه الاخيرة كأهداف وتركزت أهداف اليهود فى أمور الدنيا وحيازتها بالفساد فى الارض مضحين بالآخرة •

ولقد اختل التوازن أيضا بين أمور الدنيا وأمور الآخرة وحدث نفس الانقصام فى الديانة المسيحية فى العصور الاولى لها ، ولكن بطغيان أمور الآخرة على أمور الدنيا وكانت الرهبنة والاديرة مظهرا واضحا لهذا الطغيان ، وكانت عصور التخلف والجمود الحضارى فى أوربا نتيجة لهذا الاختلال ، أو بتعبير أدق كان هذا الاختلال أحد العوامل الرئيسية لهذا الرقاد الحضارى الاوربى المسيحى الذى دام قرونا طويلة • ثم لما تخلص الاوربيون من سلطان الكنيسة كان مما ثاروا عليه هذا الاختلال والانقصام النكريين أمور الدنيا وأمور الاخرة • ولكنهم لم يعالجوا هذا الانحراف الا بانحراف آخر ، حيث ظل الاختلال وعدم التوازن موجودا الا أنهم فى العصر الحديث أهملوا أمور الآخرة تماما ، أو كادوا • فأصبحوا كاليهود فى هذه الناحية • ولم يصبح فى أنظمتهم وعقائدهم لامور الاخرة نصيب يذكر•

أما فى الاسلام[1] ، فالامر — كما سبق القول — مختلف تماما • فبينما كان الاوربى ينطلق فى سلوكه من فكرة خاطئة ، جاءت كنتيجة مباشرة لتحريف التوراة والانجيل ، مؤداها أنه يصعب — ان لم يكن من المستحيل — الجمع بين الدنيا والاخرة ، نجد عقيدة الاسلام قد نصت على أن الذى يضيع دنياه ويفسدها ، وكذلك الذى يحيا بلا هدف لائق به كانسان ، أو الذى يوجه فاعليته الى أهداف حيوانية فقط ، كل هؤلاء خاسرون لدنياهم وآخرتهم معا • قال الله عز وجل عن الكافرين (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين — ٢٢ آل عمران) وحبوط العمل هو قصوره عن تحقيق الغاية التى عمل من أجلها ، ومن ثم فهؤلاء الكافرين تركوا العمل للاخرة ، وعملوا للدنيا فقط فخسروا الاثنين معا ، وذلك لانهم وجهوا فاعليتهم نحو أهداف حيوانية ظنا منهم أنها سبيل السعادة فى الدنيا ، فلم يسعدوا ، لا فى الدنيا ولا فى الاخرة ، وخسروا الاثنين معا •

فلا بد اذن لمن يريد الفوز بالاخرة ، أن يحيا لغاية انسانية لائقة به كانسان ، وممن ثم يجب عليه أن يصلح دنياه ويوجه فاعليته وأعماله كلها لتحقيق هذه الغاية • مثل الدنيا والاخرة كالحرث والزرع ، اذا أصلح الانسان أرضه واعتنى بزرعه ، صلح المحصول • واذا أهمل وترك الفساد يدب فيه لم يخرج له الا نكدا •

---

(١) نقصد بالاسلام هنا عقيدته القرآنية الخالصة ، وليس أهله أو تاريخه أو فكر المسلمين ، وذلك حيث حدث نفس هذا الانحراف العقيدى الذى وقعت فيه المسيحية فى القرون الاولى ولكن عند فئات من المسلمين هم الصوفية . وكان سبب شيوع الفكر الصوفى بما فيه من انحرافات وعلى رأسها انحراف الفصل بين أمور الدنيا وبين أمور الاخرة من الاسباب التاريخية لتوقف المد الحضارى الاسلامى ، وما زال هذا المفهوم المنحرف فى كثير من بلدان العالم الاسلامى حتى اليوم .

فالدنيا اذن وسيلة للاخرة ولا انتقال بين الوسيلة والغاية • قال الله عز وجل (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الاخـرة خير ـ ٣٠ النحل) وقال سبحانه وتعالى أيضا (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة ـ ١٤٨ آل عمران) •

وأوثق ما يربط بين الدنيا والاخرة فى عقيدة الاسلام ـ علاوة على ما سبق ـ هو وحده الغاية للوجود الانسانى فى الحياة الدنيا والآخرة معا •

فاذا كنا قد علمنا أن الخلافة لله هى غاية الانسان فى الدنيا ، فما هى غاية الانسان فى الاخرة ؟ ان غاية الانسان فى الاخرة هى خلافة الله وولايته أيضا فى الارض • فالخلافة لله غاية الوجود الانسانى كله •

بيد أن خلافة الانسان فى الارض ابتلائية ، ومن ثم فهى خلافة مؤقتة ولم يحدد الله بها من سيكون الانسان خليفة له ، لان هذا متروك لاختيار الانسان وعمله • ويتحدد فى نهاية ابتلائه ، بينما خـلافة الانسـان لله فى الجنة خلافة أو ولاية جزائية • فهى نتيجة الخـلافة الاولى ، ومن ثم فهى دائمة ، ولا يكون الانسـان فيهـا الا خليفـة لله ووليـا له فى ملك أبدى دائم وخالد •

أى أنه اذا فاز الانسان فى الابتلاء الجارى عليه فى الدنيا ، وحقـق خلافته لله فى الارض ، فانه بذلك يكون أهلا وجديرا بعطاء الله وفضله ومنه بأن يكون خليفة لله ووليا له فى الجنة •

فالخلافة اذن هى الغاية القصوى والابدية للوجود الانسـانى • أو هكذا يجب أن تكون حسب عقيدة الاسلام •

وما تكليف الله عز وجل لنا بأن نكون خلفاء له سـبحانه فى الدنيـا ،

الا ابتلاء واختبارا للناس حتى يميز الله بهذا الابتلاء — وهو أعلم بهم — من هو مستحقا للخلافة الابدية ممن لا يستحقها .

وهذا المفهوم نتيجة لازمة ومباشرة لقول الله عز وجل (انى جاعل فى الارض خليفة) وهذا بمقتضى التنزيل وليس بمقتضى التأويل وان كان يبدو غريبا على الذهن لاول وهلة ، حيث يتبادر الى الذهن : ان الارض هى أرض الحياة الدنيا فقط ، وهذا ليس بصحيح حيث الارض فى الآية الكريمة تتعدى أرض الحياة الدنيا الى الارض بالمفهوم الكلى العام .

الارض هى كل ما يقل المخلوق سواء فى الدنيا أو الآخرة . والانسان — بهذا المفهوم الدقيق والواسع للارض — يكون فى الجنة خليفة ووليا لله فى أرضه ، لكنها أرض أبدية بخلاف أرض الحياة الدنيا المؤقتة .

ومن ثم يمكن فهم قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة) أى فى أرض الحياة الدنيا وأرض الجنة أيضا .

يدل على صحة هذا المفهوم ويؤكده دليلان :

الاول : هو أن الله عز وجل بعد أن أخبر الملائكة بأنه سيجعل فى الارض خليفة لم ينزل هذا الخليفة الى أرض الحياة الدنيا ، وانما أسكنه الجنة (وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين — ٣٥ البقرة) .

فاسكان الله لآدم وزوجه الجنة هو جعله خليفة له فى أرضه ، ولكن الخلافة هنا ليست جزائية ، ومن ثم فهى ليست دائمة خالدة ، بل هى ابتلائية ولذلك كانت مؤقتة فهو اسكان مشروط والشرط هو (ولا تقربا هذه الشجرة) وتحريم هذه الشجرة على آدم وزوجه هى رمز للابتلاء . ولذلك قال الله تعالى لآدم « أسكن » أنت وزوجك ولم يقل : « أدخل »

أنت وزوجك الجنة خالدين فيها أبدا كما سيقال للمؤمنين يوم الحساب ، ومغزى الاسكان هنا هو أنه سلب للملكية الحقيقية وهذا هو حال الانسان فى أرض الحياة الدنيا ساكن وليس مالكا ، وذلك بمقتضى الاجل المحدود .

الدليل الثانى : هو أن الجنة التى أسكنها الله آدم أرض ، والجنة التى سيخلد فيها آدم وبنوه الفائزون فى الابتلاء فى الآخرة أرض أيضا . بقول الله عز وجل يخبرنا بمقالة أهل الجنة بعد دخولها (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ٧٤ الزمر) وفى هذا بيان بانتهاء حالهم الوجودى الى خلافتهم لله فى الارض واعطاء الله لهم الارض توريثا أى تمليكا فهم فيها خلفاء وأولياء لله عز وجل ، وليست هذه أرض الحياة الدنيا بل هى أرض الجنة التى ملكها لهم الله يتبوأون منها حيث يشاءون .

وعلى ذلك يثبت لنا أن خلافة الارض ليست قاصرة على أرض الحياة الدنيا وانما تتعداها الى أرض الآخرة .

ومن ثم يصبح عمل المسلم فى الدنيا لتحقيق خلافته لله فيها هو فى نفس الوقت السبيل الوحيد أمامه ليكون خليفة لله فى الآخرة مالكا ووارثا للارض يتبوأ من الجنة حيث يشاء .

وهكذا ترتبط الدنيا والآخرة بهدف واحد أبدى وغاية واحدة مطلقة وليس أوثق من ارتباط الغايات وبخاصة اذا كانت الغاية جامعة والرابطة مطلقة ونهائية وأبدية ونعنى بها الخلافة لله عز وجل .

والفرد المسلم مكلف بالوصول الى كماله الذاتى المتمثل فى الخلافة فى حياته الدنيا ، وليس أمامه من فرصة أخرى لتحقيق هذا الكمال وللوصول الى هذا الهدف ، فلا رجوع مرة أخرى الى هذه الحياة الدنيا ولا تناسخ

ولا فرصة لاعادة الامتحان • وكذلك لا ذوبان ولا فناء للفرد فى الطبيعة أو الكون ، بل يظل الوجود الانسانى الى الابد متمثلا أول ما يتمثل فى الافراد أو النفوس الفردية كما بدأ الله خلق الانسان فـــردا • (وكلهم آتيـــة يوم القيامة فردا ــ ٩٥ مريم) •

فالزمان يسير فى خط مستقيم نحو هدف محدد هو الوصول بالفائزين فى الابتلاء من الناس الى مقاعد خـــلافتهم وملكهم فى الجنة قال تعـــالى (يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ــ ٦ الانشقاق) وقال تعالى موضحا المراحل الوجودية التى يعبرها الانسان خلال الزمان (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ــ ٢٨ البقرة) ونتيجة الرجوع هو وصول الفائزين الى الغاية التى آمنوا بها وجعلوها هدفهم المطلق فى الدنيا والاخرة وعملوا على تحقيقها وهى خلافة الله فى الارض •

فمن أدرك هذا الهدف فى دنياه وحققه أدركه فى الاخرة ومن أخطأه أو خسره أو ضل عنه فى دنياه أخطأه وخسره وضل عنه فى الاخرة • ومن ثم زحزح عنه ــ أى عن الجنة ــ الى النار •

ومن ثم فالنمو الذاتى الروحى عمل فـــردى فى الاصـــل . أو بعبارة أخرى نقول : ان ارتقاء المسلم واقترابه من كماله الذاتى المتمثل فى تحقيق عبوديته لله وسيادته فى الارض ، يقوم أساسا على الجهد والعمل الفردى وان كان للنواحى الاجتماعية آثار وتأثير فى ذلك •

ولان الخلافة عبودية لله وســـيادة فى الارض ولانهما ــ كما ســـبق القول ــ وجهان لحقيقة واحدة لا ينفصلان فى واقـــع الحياة ولا يتحقـــق

احدهما الا بالاخر ويؤدى ضياع أحدهما الى ضياع الاخر بالضرورة . كلف الله عز وجل الفرد بالعمل فى مجال تحقيق السيادة لكسب عيشه وادراك رزقه ورفع مستوى حياته المادى بنفس القوة التى كلفه بها فى مجال الشعائر التعبدية وغيرها من تكاليف الدين المحققة للعبودية .

بل ان العمل فى مجال السيادة أو فيما يسميه البعض بالامور الدنيوية[1] ، هو عبادة فى الاسلام ، وانما التفريق بين العبودية والسيادة هو للتوضيح فقط . ولوجود تمايز بينهما من حيث نوع التعامل فى كل منهما ومن حيث الطرف الاخر فى التعامل .

ولكن ليس بينهما تمايزا أو اختلاف فى الهدف أو تعارض فى الوسائل .

أما تعامل الانسان فى مجال العبودية فهو تعامله مع ربه ومع الناس . وهو تعامل يكون فيه الانسان خاضعا لله ذليلا ومتساويا مع الناس أما التعامل الخاص بالسيادة فهو تعامل الانسان مع الاشياء والاحياء فى الارض من غير الانسان وطبيعته السيطرة والهيمنة والسيادة .

لكن أعمال السيادة هى جهد الانسان وسعيه لتأكيد خلافته وترسيخ سيادته على الارض ، وأعمال العبودية هى توجيه هذه الخلافة لكى يكون الانسان فيها عبدا لله وحده وصرف هذه العبودية عمن سواه .

---

(١) وهو تقسيم غير اسلامى لان الاسلام لا يفرق بين أعمال دنيوية وأعمال أخروية حيث كل أعمال الانسان فى الاسلام هى للاثنين معا فهى وان كانت موجهة للاخرة الا أنها لتحقيق الخلافة فى الاثنين معا .

وكما أن الخلافة لله هى مستوى الكمال المقدر والمستطاع للذات الانسانية الفردية ، حيث يستطيع الانسان أن يبلغه فى حياته الفردية ويقترب منه كل فرد بقدر عبادته لله وسعيه فى الدنيا ، فان الخلافة أيضا هى مستوى الكمال المقدر والمستطاع للمجتمع الانسانى الذى عليه أن يسعى للوصول اليه فى عمر الجيل الواحد .

وكما لا تتم عبودية الانسان الاجتماعية لله عز وجل الا بعد تحقيق العبوديات الفردية ، كذلك لا يمكن اقامة خلافة الله فى الارض على المستوى الاجتماعى الا بعد وجود الافراد الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر ويعمل كل منهم لكى يكون خليفة لله عز وجل فى نفسه .

وعندما يتكون على الارض مجتمع من خلفاء الله عز وجل فان كلا منهم سيكون بالنسبة لهذا المجتمع أكثر من مجرد لبنة تقوم فى البناء ، لان التفاعل القائم بين هؤلاء الافراد سينتج حضارة انسانية حقة كاملة ، فكلهم يرتبط بهدف واحد وكلهم يعمل لهذا الهدف ولكن من منطلقاتهم الفردية المختلفة ووسائلهم المختلفة وسبلهم المختلفة كذلك .

ان الفوارق الفردية هنا بين الافراد تزيد من خصوبة الحياة الانسانية وانتاجها فمواهب الناس وقدراتهم وميولهم واستطاعاتهم متفاوتة ومتمايزة ومختلفة وكان من الممكن أن تذهب سدى وتضيع هباء لولا أن الجميع يقصدون وجهة واحدة ويعملون لهدف واحد ، فهم وان كانوا يسلكون بفاعليتهم سبلا كثيرة الا أنها فى النهاية — بسبب وحدة الهدف بينهم — تصب فى ميدان واحد يجمعهم فى النهاية .

لقد شاء الله عز وجل أن تكون الحياة الانسانية متنوعة النشاطات

متعددة المطالب ومن ثم جعل الله عز وجل الناس مختلفى المشارب والميول والملكات والقدرات •

ومن ثم يستطيع كل مسلم فى المجتمع الاسلامى أن يعمل فى المجال الذى يميل اليه : زراعيا كان أو صناعيا أو تجاريا ، أو أى مهنة أخرى من المهن ولكن هذه النشاطات جميعا لا تضيع سدى لا خلال المجتمع الواحد ولا خلال المجتمعات المتعددة ولا خلال الجيل الواحد ولا خلال الاجيال المتتالية ، ومن ثم تتراكم فى النهاية فاعليات الافراد والاجيال والمجتمعات وينمو رصيد الانسانية حضاريا ويرقى بذلك الانسان رويدا رويدا فى ميدان السيادة فى الارض •

وبهذا يظهر لنا أثر التوحيد الاسلامى فى نشأة الحضارة ونموها ورقيها وأهم من ذلك كله المحافظة عليها كتراكمات جيلا بعد جيل وحمايتها من الضياع والتلف والانهيار والفناء • فبالتوحيد الاسلامى تتوجه فاعليات الافراد والمجتمعات والاجيال فى حياة الامة الاسلامية نحو بؤرة واحدة فتزهو الحياة وتزدهر وتنير ، وذلك لتوحيد الهدف الذى يعمل له الجميع وهو الخلافة •

ولا يتم ذلك الا لامة التوحيد التى غاية أبنائها خلال الزمان والمكان فى ظل التوحيد الاسلامى واحدة •

ولا شك أن ابتعاد فئات من المسلمين عن عقيدة التوحيد الخالصة خلال تاريخ الاسلام كان له أثره السيء فى صرف هذه الفئات عن الخلافة كغاية واحدة للامة مما كان له أثره فى تشتيت الجهود وبعثرتها ومن ثم فى اضعاف ثم اخماد جذوة الحضارة الاسلامية •

(٨) الخـــلافة وحقيقة الصراع التاريخى

ويستنبط أيضا من حقيقة الخلافة القرآنية نتيجة هامة من أســـاس حركة التاريخ البشرى وحقيقة الصراع بين الناس فى الارض •

هذا الصراع الذى يؤدى فى أحيان كثيرة الى الافســـاد فى الارض وسفك الدماء •

لقد علمنا أن الخلافة الدنيوية ابتلائية بمعنى أن الانسان مجبر على أن يكون خليفة ، ولكنه مخير ـــ فى نفس الوقت ـــ بين أن يجعل من نفسه خليفة لله عز وجل وبين أن يجعل من نفسه خليفة لغير الله عز وجل ، : للهوى، للسلطان ، للمال ، للمفكر ، للمشرع ، للبرلمـــان ، لمنهاج معين لأحيـــاة •• الخ وبكلمة واحدة تجمع هذا كله للطاغوت •

فالناس نتيجة لابتلائهم ـــ ولتوفير مقومات الحرية والاختيار عندهم يصبحون ـــ بالضرورة ـــ مختلفين ، أما خلفـــاء الرحمـــن واما خلفـــاء للشـــيطان •

ويكمن فى هذا الاختلاف الجذرى والجوهرى بين وجهـــة كل فـــريق وأهدافه ومنهجه ونظامه فى الحياة تفسير وتعليل الصراع بينهما وحـــركة التاريخ البشرى •

فالناس ، الان وقبل الان ، وبعد الان حزبان يتصارعان وهما اثنان من حيث النوع وليس من حيث العدد ، حزب الله وحزب الشيطان •

وحزب الله يعـــادى حزب الشيطان ، ولا يجوز له أن يهادنه أو يوافقه أو يجعل له فى نفسه ودا أو حتى يحاول ازالة البغضاء والكراهية والحذر وسائر المشاعر المصاحبة للمصارع فى حلبة المصارعة ، فالحرب بين الحزبين أبدية ولا تنتهى الا بانتهاء الحياة على الارض •

قال تعالى (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حـزب الشيطان ، الا أن حزب الشيطان هم الخاسرون • ان الذين يحـادون الله ورسوله أولئك فى الاذلين •

كتب الله لاغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز •

لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضـوا عنه أولئك حـزب الله الا أن حـزب الله هم المفلحون — ١٩—٢٢ المجادلة) •

وحزب الله لا يتعدد ، فهو واحد لان الحق واحد (فذلكم الله ربـكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال) ولذلك لا يتمثل حـزب الله الا فى أمـة واحدة ، ولو تعددت مجتمعاتها وأطرافها لعوامل جغرافية أو لاحوال طارئة ولكنها مع ذلك تكون فى مواجهة الاحزاب الاخرى أمة واحدة (وان هـذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون — ٥٢ المؤمنون) •

وكما أن حزب الله لا يتعدد لانه على الحـق ، والحـق فى كل قضية واحد لا يتعدد ، فكذلك نجد حزب الشيطان متعدد لانه على الباطل والباطل فى كل قضية كثير ومتعدد ومختلف (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بمـا لديهم فرحون ٥٣ — المؤمنون) •

ولكن اختلاف حزب الشيطان الى أحزاب متعادية شديدة البأس فيما بينها لا يمنعها أن تتحد وتتعاضـد فى صراعها مع حـزب الله ، لانهم وان كانوا مختلفين فى المذاهب والمشارب والمناهج والسبل الا أنهم متفقون فى الاهداف والغايات وكلها تتعارض مع هدف حزب الله وغايته •

فالصراع فى الارض هو صراع بين ايمان وكفر ، بين توحيد وشرك ، بين خير وشر بين المؤمنين والكافرين بين الاسلام والاديان الاخرى • هذه هى حقيقة الصراع بين الناس خلال الزمان والمكان •

أما تفسير التاريخ بأنه صراع بين الطبقات أو صراع بين الاغنياء والفقراء من أجل المال كما يقول الماركسيون فهذا ليس تفسيرا ولا تعليلا لحقيقة الصراع التاريخى العامة ، قد يكون تفسير الصراع جزئى بين حزبين كافرين من أجل مغانم دنيوية لكنه لا يصلح كتفسير لتعليل أفعال المؤمنين الذين يضحون بمالهم وأنفسهم فى سبيل الله •

وكذلك الامر بالنسبة لتفسير التاريخ بصراع القوميات والاجناس كما يزعم القوميون ، لان هذا التفسير لا يصلح أيضا لتفسير قيام الحضارات العالمية كالحضارة الاسلامية ومن قبلها الحضارة المسيحية الرومانية حيث تضم الحضارة العالمية العديد من القوميات والاجناس والالوان فى أمة واحدة •

ان الدين منشىء للحضارة ، ومن ثم فان الصراع بين الاديان ينتهى الى صراع بين الحضارات •

فالصراع التاريخى صراع حضارى فى المقام الاول وبالمعنى الاوسع لكلمة الصراع وبذلك يكون تاريخ الانسان هو تاريخ الاديان •

فالحضارات تتصارع ، وأحداث التاريخ البشرى هو نتاج لهذا الصراع الواقع ، أسبابا ونتائجا ، بأمر الله عز وجل وقدره ودفعه للناس بعضهم ببعض ودفعه للامم بعضها ببعض ودفعه للحضارات بعضها ببعض • والله غالب على أمره ويعدد أرنولد توينبى (المؤرخ الانجليزى الاشهر والملقب فى أجهزة الاعلام الغربية بنبى الحضارة الغربية) الحضارات الحية القائمة على الارض الآن والمشاركة فى الصراع الحضارى بخمس : مسيحية غربية ومسيحية شرقية وبوذية وهندوكية واسلامية وأضاف الى هذه الخمس اليهودية ولكنه وصفها بأنها حضارة بائدة متحجرة

ظهرت على سطح الاحداث الان فى شكل صهيونية وماسونية[1] .

فصراع القوميات أو الايديولوجيات أو الانظمة أو الاتجاهات الوضعية ، وكذلك المعارك السياسية والثقافية والمنافسات الاقتصادية (صناعية وتجارية) كل هذه أشكال فرعية من الصراع الحضارى وليست لب الصراع وجوهره فهى بمثابة المعارك الفرعية والجانبية ، ربما يستخدم بعضها للتمويه والخداع والالهاء عن المعركة الحقيقية الرئيسية الحاسمة وهى معركة الدين .

وربما يستخدم البعض الآخر كهجمات وقائية سريعة أو لاغراض تخدم استراتيجية كالتى تخدمها حرب العصابات ، لكن ميدان الصراع الحقيقى والمعركة الحاسمة هو صراع الحضارات ، ولما كان الدين هو روح الحضارة وبه تتميز كل حضارة عن الاخرى فى أصلها وجوهرها ونشأتها واتجاهها وغاياتها ونتائجها ، فانه ليس من المبالغة القول بأن الصراع فى الارض هو صراع أديان .

فليس ثمة معركة فوق هذه الارض فى أى زمان أو مكان سواء كانت أيديولوجية أو فكرية أو ثقافية أو اقتصادية أو سياسية أو حربية ، الا وهى بين فريقين ينتسب كل منهما الى دين مخالف ، ولو ظهر لنا من التاريخ المسجل غير ذلك .

والاسلام دين فريد متميز بين أديان الارض ، وليس قريبا لدين آخر ، ولا يمت لاحدها بصلة ، لان نسبه موصول بمنزله سبحانه وتعالى ، فهو دين

---

(١) ونضيف من عندنا حسب اعتقادنا ، وشيوعية لاننا نعتقد بيقين أن الماسونية والشيوعية وجهان لعملة واحدة هى الصهيونية .

الله وكلمته الاخيرة للناس ، ومن ثم فالحقيقة التى سقطت من نظرية توينبى فى تصنيف الحضارات هى أن الحضارات خمس فى العدد واثنان فى النوع، الاول : هو الاسلام وهو ليس من نوع حضارة أخرى وليست هناك حضارة أخرى من نوعه ، والثانى يضم الحضارات الاربع أو الخمس الباقية حيث جميعها أديان وصفية أو سماوية محرفة غلب التحريف والوضع على الاصل السماوى فيها كما هو واقع التوراة ، والانجيل أو الاناجيل •

وبذلك يقف الاسلام وحده فى المعترك الحضارى فى مواجهة خمس حضارات وربما تقودها وتوجهها وتهيمن عليها الحضارة اليهودية المتحجرة•

لقد تواطأت المسيحيتان الغربية والشرقية مع الصهيونية على القضاء على الخلافة الاسلامية ثم طعنوا العالم الاسلامى بسكين ماضية اسمها اسرائيل ولكن والحمد لله الطعنة لم تكن فى القلب لان قلب الامة الاسلامية هو دينها • ودينها باق الى قيام الساعة •

فالصراع مستمر ، فلمن يا ترى تكون الغلبة باذن الله تعالى ؟؟••

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(٩) الخلافة لله هى النموذج الصحيح الكامل للحضـــارة الانســـانية

ثمة اختلاف حول مفاهيم الحضارة والثقافة والمدنية ، بيد أن أقرب هذه المفاهيم الى التحـــديد والوضـــوح ــ فيما أرى ــ هو القـــائل بأن الحضارة أنماط متقدمة وراقية لاساليب الحيـــاة الانســـانية والمعيشـــة البشرية ، وأن الثقافة هى روح الحضارة وجانبها الفكرى والمعنوى ، بينما المدنية تعبير عن جانبها المـــادى والمظهرى •

ومن ثم يمكن القول بأن المصطلحات الثلاثة ــ حسب هذا المفهوم ــ تعبر عن حقيقة واحدة من زوايا مختلفة •

ويرجع الارتباط الوثيق بين هـــذه المفاهيم الى أن تحليل الحضـــارة ينتهى الى أنها أفعال انسانية ، أى أن الفعل البشرى هو اللبنة التى يتكون منها البناء الحضارى •

ولبنات الحضارة أو الافعال الانسانية نوعان :

الاولى : الافعال الانسانية الناتجة عن تعامل الانسان مع ربه ومـــع نفسه ومع أخيه الانسان ، كفرد وكمجتمع وكنوع •

الثانية : وهى الاعمال الناتجة عن تعامل الانسان وتفاعله مـــع الكون والحياة والعناصر المـــادية والحيوية المكونة لبيئته الطبيعية من ناحية أخرى

وبناء على هذا فقد يكون من المهم ــ بالنسبة لمـــا نحن بصـــدده ــ معرفة مقومات الفاعلية الانسانية وعناصر الفعل البشرى ، وتلك المسألة هى حجر الزاوية فى مسألة القضاء والقدر ، وهى قضية تحتاج الى مجال أفسح من هذا المجال ولكنا نوجزها نظرا لاهميتها لموضوعنا •

يثبت القرآن الكريم الفعل للانسان ، وينسبه الى فاعليته أصالة ، وان كان يقرر أيضا أن الانسان وفعله مخلوقات لله تعالى .

ومقومات الفعل الانسانى كما يمكن استنباطها من آيات القرآن الكريم — وهى : الارادة والاستطاعة والعلم .

فالحرية الانسانية واقع لامراء فيه . ولكنها ليست حرية مطلقة بل هى حرية محدودة تناسب الوجود البشرى المحدود . فالارادة الانسانية مختارة ، ولكنها ليست حرة بالمعنى المطلق .

والفرق بين الحرية المطلقة وبين الاختيار البشرى أو الحرية الانسانية المحدودة هى أن الاولى يفعل صاحبها ما يشاء ، وهذه لله وحده ، بينما الاختيار البشرى لا يتعدى أن يكون عملية تفضيل وانحياز للارادة الى فعل من فعلين متضادين معروضين أمامها ، أحدهما خير والاخر شر بالضرورة وبالمصطلح الاسلامى أحدهما طاعة والاخر معصية بالضرورة .

ويتمثل عمل الارادة فى عقد العزم وتوجيه النية الى غاية محددة ومعلومة من شأنها — أى الغاية — أن يتشكل الفعل بحسبها الى هيئة وكيفية تفرق بينه وبين غيره من الافعال حتى يصبح أحدها حراما والاخر حلالا بالنظر الى الغاية التى تتحقق من الفعل .

وهنا يأتى دور الاستطاعة الانسانية حيث تكون خاضعة وملبية للارادة الانسانية لتنفيذ وتحقيق ما تختاره الارادة .

ويثبت القرآن الكريم فى أكثر من موضع الارادة الانسانية واختيارها سواء بالنسبة للارادة الفردية أو الارادة الجماعية . كما يثبت أيضا الاستطاعة البشرية التى يكتسب بها الانسان الفعل .

أما المعرفة — كمقوم ثالث للفعل الانسانى — فهى نوعان :

الاول:يختص بالارادة:يرشدها ويوجهها ويهديها الى اختيار الفعل الحسن وترك القبيح ، واختيار الخير وترك الشر ، ومصدر هذا النوع من المعرفة هو الوحى ، أى الرسالات السماوية ، أو شريعة الله عز وجل المتمثلة الآن فى الاسلام (ان الدين عند الله الاسلام) .

والثانى : يختص بارشاد وتوجيه وتنوير الاستطاعة وهذا النوع من المعرفة يتمثل فى العلوم الطبيعية والمادية وتطبيقاتها العملية . والغاية من هذه المعرفة تقتصر على تقوية وتوسيع مجال الفاعلية البشرية .

أى أن الدين معرفة من شأنها هداية الانسان الى الاقوم والامثل فى شتى أنواع السلوك فى معاملته مع ربه (العبادات) ، ومع الافراد (الاخلاق) ومع مجتمعه (النظم الاجتماعية) .

كما أن العلوم التجريبية والتقنية من شأنها جميعا تمكين الانسان فى الارض وتسخير الموجودات فيها لمنفعته ومصلحته .

ومعنى هذا أن فائدة العلوم الطبيعية والتطبيقات العملية والصناعية للانسان تكمن فى توسيع دائرة الاستطاعة البشرية ، واذا تأملنا بعمق أثرها فى حياتنا المعاصرة ، لوجدنا أن التقدم العلمى والتقنى الهائل الذى أحرزته الحضارة الغربية المعاصرة لم يضف الى استطاعة الانسان ملكة أو قوة فاعلة جديدة ، لم تكن موجودة عنده من قبل ، فالسيارة والطائرة والصاروخ ، ليست هى وأمثالها سوى توسيع لحركة النقلة عند الانسان والتى تتمثل فى رجليه .

والآلات بأنواعها ليست سوى توسيع لامكانات اليد البشرية .

والبرق والهاتف والمذياع توسيع وتقوية للسمع البشرى •

والرائى (التليفزيون) والمقرب (التلسكوب) والمجهر(الميكروسكوب) وآلات الخيالة (السينما) توسيع لنطاق الابصار البشرى ، حتى ما يسونه بالحاسب (الالكترونى) الذى هو فى الحقيقة مجرد مخزن لحفظ المعلومات هو أيضا مجرد توسيع للذاكرة والملكة الحاسبة عند الانسان •

هكذا يتأكد لنا أنه ما من عمل تقنى (تكنولوجى) الا وهو توسيع وتقوية لملكات وقوى وأعضاء الاستطاعة البشرية • أى أن تأثيره قاصر على مجال الاستطاعة وليس له تأثير على جوهرها •

وليس للعلم التجريبى والتقنية أيضا أدنى تأثير على الارادة الانسانية واختيارها ، بل ان الارادة هى التى لها تأثير كبير على استخدام التقنية والتقدم الصناعى ، لان الانسان يستطيع بادارته المختارة توجيه المخترعات وسائر استخدامات المادة القائمة على المكتشفات العلمية توجيها حسنا محققا للقيم الخلقية حين يخضعها لشريعة الله وأوامره ، أو يوجهها توجيها قبيحا شريرا سيئا حين تستخدم بمناهج ولغايات مخالفة لشريعة الله •

ولتوضيح هذا نقول : ان صنع القنبلة الذرية ، مثلا ، عمل تقنى بحت، أما قرار استخدامها ، فهو سلوك خلقى نابع من الارادة الجماعية لاصحاب القرار ، أى أنه عمل اختيارى من أعمال الارادة وليس من أعمال الاستطاعة•

وما نريد أن ننتهى اليه من ذلك كله هو أن الدين يوجه الارادة ، والعلم التجريبى والتقنية يوجهان الاستطاعة ويوسعان دائرة مجالاتها •

وهذا التحديد هام وخطير ، اذ بسبب اغفاله الخلط والشبهات حول

الدين والعلم والعلاقة بينهما ، حيث يحاول المغرضون الايهام بوجود تعارض بينهما بالرغم من أنهما مكملان لبعضهما كما رأينا •

وهو هام أيضا من الناحية المنهجية والعملية ، وذلك لان الحضارة الانسانية الحقة الكاملة ، هى التى تهتدى فى مجال السلوك الخلقى والنظم الاجتماعية والعلاقات الانسانية بشريعة الله فقط (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم — ٩ الاسراء) بينما تأخذ هذه الحضارة العلم التجريبى والخبرة التقنية من المنبع الخاص بهما وهو العالم الطبيعى ، وبالمنهج المناسب لدراسة هذا العالم وهو المنهج التجريبى والمنهج الرياضى • (أنتم أعلم بأمور دنياكم) •

فالدين والعلم التجريبى هما الاساسان اللذان تقوم عليهما الحضارة الحقة الكاملة ، فاذا قامت على أحدهما دون الآخر ، أو على واحد صحيح وآخر غير صحيح ، فانها تصبح حضارة ناقصة ذات جناح واحدة ، لا يمكنها أن تحلق عاليا وطويلا •

فحين ينقص المجتمع أو الحضارة العلم والتكنولوجيا ويكون متخلفا فيهما عن غيره من المجتمعات أو الحضارات المعاصرة له فانه يوصف بأنه على حالة من التخلف •

وفى حالة تنحية شريعة الله عن تنظيم المجتمع والحياة الخلقية ، فانه يوصف بأنه مجتمع جاهلى أو مجتمع فيه جاهلية ، وذلك بقدر الانحراف عن أحكام الشريعة ومقرراتها ، أو بقدر خلوه منها •

وبهذا المعيار تعتبر الحضارة الاسلامية فى عصور الخلافة الراشدة والدولة الاموية والعباسية هى الحضارة الانسانية الكاملة الفذة فى تاريخ الانسانية المكتوب •

فقد عاشت البشرية ــ مؤمنها وكافرها ــ خلال عصور هذه الحضارة فى ظل شريعة الله ونظمه وحكمه ، وفى نفس الوقت كان العالم الاسلامى على أعلى درجة من التقدم العلمى والتقنى فى هذه العصور •

فاكتمل للمسلمين أساسا أو مقوما الحضارة ، وما نعلم حضارة سواها اكتمل لها هذان الاساسان ، ومن ثم نمت الحضارة الاسلامية وارتقت بجانبها الروحى والمادى بتوازن دقيق فكانت وليدا صحيحا متناسقا فى ذاته ، ومحققا للاهداف الانسانية العليا التى قامت من أجلها ، وهى خلافة الانسان لله فى الارض ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة كانت أقل دائما من عصر الخلافة الراشدة •

بهذين الاساسين أو المقومين : الدين والعلم يتحقق العبودية والسيادة • أو بتعبير أدق نقول : يحقق الانسان الخلافة : عبودية وسيادة بالعمل ، العبودية تتحقق بالعمل وفق منهج الدين ، والسيادة تتحقق بالعمل وفق منهج العلم والتقنية •

وبهذين الاساسين ، وبدون الخلط بينهما ، أو استعمال أحدهما فى موضع الآخر ، يتحقق التوازن المطلوب فى مسألة الجبر والاختيار ، ويتحدد القدر والحجم الصحيح للفاعلية البشرية وموقعها من القدر الالهى والقوانين الطبيعية ، بحيث لا تكبل ارادة الانسان ، ولا ترسل ارسالا مطلقا فى نفس الوقت ، فتقع فى التيه الذى لا منجاة منه • وبحيث لا تعطل استطاعته فيتجمد حضاريا ، وفى نفس الوقت لا تطلق استطاعته كالفرس الجامح الذى لا يوقفه شىء فتعود على الانسانية بالضرر أكثر مما تعود عليها بالنفع •

والحقيقة التى يمكن اثباتها من ملاحظة نشوء ونمو الحضارات أن

هناك ارتباطا وثيقا بين اتجاه الحضارة لامة من الامم وتحديد مسيرتها ، وكذلك سرعة أو بطء انطلاقها ، من ناحية ، وبين عقيدة هذه الامة فى الالوهية والعالم والانسان بعامة وفى القضاء والقدر بخاصة من ناحية أخرى .

فالتواكل أو ايمان أمة من الامم بالجبر المطلق يقعدها عن الاخذ بأسباب الحضارة ، ويكبل ارادتها الفردية والجماعية عن الاخذ بالحسن والترك للقبيح والتطلع لما هو أقوم ، كما أنه — أى التواكل وعقيدة الجبريين — يعطل ملكات أصحابه الابداعية عن الاستنباط والاكتشاف والاختراع مما يشل الفاعلية الانسانية ، ومن ثم يسير بهم تاريخهم فى اتجاه معاكس للاتجاه المنتج للحضارة الحقة الكاملة .

ومثال ذلك العرب فى جاهليتهم ، كانوا جبريين لا يؤمنون بدور الفاعلية البشرية ، وينسبون كل الاحداث للدهر والقدر ويتمثلونهما فى تماثيل يعبدونها ، خوفا ورجاء ، فكانت أغلالا على أعناقهم منعتهم من التقدم والرقى بالرغم من أن ملكاتهم وقواهم العقلية والنفسية لم تكن ينقصها العناصر المبدعة للحضارة ، بدليل أنهم أبدعوها بعد أن اعتنقوا الاسلام ، حيث صحح عقيدتهم فى القضاء والقدر ، فوضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، ومصداق ذلك قول الله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون — آية ١٥٧ سورة الاعراف) .

أما الموقف المقابل الذى يتمثل فى انكار القدر والعناية الالهية ، ودورها

فى الارض ، فان ذلك له تأثيره الخطير على خط سير الحضـــارة أيضا ، اذ ينحرف به انحرافا شديدا عن وجهتها الانسانية الصحيحة .

ومثال ذلك الحضارة اليونانية القديمة التى نبـــذت فلســـفتها عبادة الآلهة الاسطورية لمنافاة هذه العقيدة لاحكام العقل البشرى ومـــدلالات الفطرة الانسانية ، ولكنها لم ترفض تعدد الآلهة لتعبد الاله الواحد المنفرد بالخلق والمشيئة جل وعز ، وتؤمن بقدره وعنايته التامة فى الكون ، بل عالجت انحرافا بانحراف مثله ، فعبدت العقل الانسانى ، فكانت عبادة الانســـانية التى وكل للعقل أمور كل شىء ، سواء كان من عمـــل الارادة أو من عمـــل الاستطاعة ، فتخبط فى بيداء الكون تائها شريدا ، وعقمت الفلسفة اليونانية لذلك أن تنتج حضارة كاملة بشقيها الروحى والمـــادى ، وكانت هذه الفلسفة نهاية حضارة ، ولم تكن أساسا وبدءا لحضارة وما ذلك الا لانها لم تفلح فى وضع الانسان فى موضعه الصحيح من العالم ، وبالتالى لم تعرف أصـــول وحدود فعله ، والمناهج المعرفية المقومة له . ومن ثم لم تســـتطع تحـــديد موقعه من الوجود بسبب فساد عقيدتها فى الالوهية والقضاء والقدر .

وتعتبر الحضارة الغربية المعاصرة وريثة حضـــارتين : الحضـــارة اليونانية والحضارة الرومانية . من ناحية والحضارة الاسلامية من ناحية أخرى أخذت الحضارة الغربية المعاصرة من كل منهما بجـــانب ، فمزجت *اتجاها خاطئا بآخر صحيح . أخذت من الحضـــارة اليونانية الرومانيـــة* *العقيدة* وأسس *النظم* الاجتماعية والقانونية أى الجانب الثقافى الخـــاص بالمماثل للعبودية أو البديل للعبودية فى الحضارة الاسلامية وهـــو الجانب الخاص بتوجيه الارادة الفردية والجماعية فى مجـــال الاخـــلاق والنظم والتشريعات ، فكانت قيمها وثنية مادية وهو تراث اليونانيين والرومانيين. وأخذت الغربية المعاصرة من الاسلامية المنهـــج العلمى التجـــريبى

وأصول مدنيتها فى حين أنها رفضت عقيدة المسلمين وقيمهم ونظمهم وشرائعهم • ومن ثم بدأ الغربيون المحدثون فى استكمال المشوار الحضارى الذى أنجزه المسلمون حين توقف المد الحضارى الاسلامى ، ولكن فى الجانب المادى دون الروحى . فصارت حضارة مادية فقط فى جميع جوانبها ، حيث ترعرعت مدنيتها بوثنيات عالية وجبارة بفضل المنهج العلمى التجريبى ، بينما ضلت ارادة الانسان الغربى المعاصر عن الاختيار القويم مما أفسد الحياة الخلقية والاجتماعية فسادا بينا واضحا ، بدد الانسانية وضيعها من الانسان •

وعلة ذلك — فى المقام الاول — تكمن فى فشل العقائد والمبادىء الغربية الحديثة والمعاصرة فى فهم الانسان وفى وضعه موضعه الصحيح من الوجود — كخليفة لله فى الارض — وتصوروا أنه يقوم فى هذا الوجود وحده ، وأنكروا أو تجاهلوا العناية الالهية •

فكون الانسان خليفة لله فى الارض يتضمن أنه عبد من ناحية وسيد على ما دونه فى الكائنات فى الارض من ناحية أخرى • بيد أن الغرب المعاصر أكد الثانية وعمقها بمنجزات العلم والتقنية المتقدمين ، ونسى عبودية الانسان لله أو تناساها أو أنكرها • وظن بذلك رجل الحضارة الغربية أنه كسب كل شىء فى الارض فى حين أن سيادته على المادة — حين رفض عبوديته لله — انتكست الى عبودية لها ، ومن ثم خسر نفسه ، وماذا يفيد الانسان — حين يخسر ذاته — أن يكسب ما سواها ؟•

حقا : لقد غاص الانسان الغربى المعاصر فى أعماق المحيطات كما تغوص الحيتان ، وطار فى أجواء السماء أعظم مما تطير الطيور ، بل اخترق نطاق الجاذبية الارضية ، ووضع قدميه على القمر ، وفعل بالمادة ومنها

ما هو فى ظن أسلافهم من العجب العجـــاب بل يبـــدو للجاهل الغر أنه من ضروب السحر والخيال ، فعل كل ذلك فى الوقت الذى عجز عن أن يفعـــل شيئا بسيطا وهو أن يسير فوق الارض كانسان ، وذلك بعد أن ضـــاع منه الانســـــان .

ان الحضارة الغربية المعاصرة حضارة غير كاملة تقـــف على ســـاق واحدة ، وأ تحلق فى الفضاء بجناح واحدة ، وأنى للطائر أن يطـــير بجناح واحدة أو للواقف أن يستمر فى وقوفه على قدم واحدة ، ان مصيره الحتمى هو السقوط والانهيار .

لقد نمت هذه الحضارة كالوليد المشوه ، لانها فقـــدت التـــوازن فى فى معدلات النمو ، حيث نمت بنسب سرطانية فى الجانب المـــادى ، وبنسب تكاد تكون معدومة فى الجانب الروحى .

لقد غذت هذه الحضارة فى الانسان جسده وشهواته بأقصى قدر يمكن أن يتحمله جسده ، بينما تركت الروح بلا غـــذاء ، والارادة بـــلا هادى ، فخلفت وراءها خواء روحيا وفراغا عقيـــديا وتدهـــورا أخلاقيا ، وتفككا أسريا واجتماعيا ، وانتهى ذلك كله بهذه الحضارة الى تبديد جوهر الانسان. والتسفل به الى درك هابط ومصداق ذلك قـــول ربنا عـــز وجل (ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا — ٤٤ الفرقان) وقال تعالى (أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون — ١٧٩ الاعراف) .

(١٠) مستقبل الحضارة الغربية المعاصرة من منظور الخلافة ، وبشهادة شاهد من أهلها

هذا ما يمكن أن ينتهى اليه النظر فى النتائج الانسانية للحضارة الغربية من خلال المبادىء والقيم الاسلامية بخاصة والدينية بعامة •

ومع هذا فان الحضارة الغربية ذاتها لم تعدم من أبنائها من توصل الى هذه النتائج أو ما يقرب منها من خلال دراسة موضوعية ونظرة متجردة لما آل اليه جوهر الحضارة الغربية ، ومن ثم ما يتوقع لها من مصير، ونعنى به ، وهو ابن مخلص لحضارته — المؤرخ والمفكر الانجليزى المعاصر أرنولد• ج• توينبى •

يرى توينبى أن التقدم التقنى الصناعى (التكنولوجى) ليس معيارا للارتقاء الحضارى ، وكذلك القوة العسكرية لا تعنى ارتقاء حضاريا أيضا، وانما يتمثل عنده معيار الارتقاء الحضارى فيما يسميه بعملية التسامى التى تكون عليها الحالة الخلقية للفرد والمجتمع •

فاذا كانت هذه العملية فى ارتقاء وتقدم مستمر ، فان المجتمع ناهض متطور نحو الحضارة •

والتسامى عند توينبى هو محاولة التغلب على الحواجز المادية ، وهى عملية اطلاق الطاقات الكامنة فى النفس البشرية ، لتستجيب للتحديات التى تنبعث من داخل النفس ، قبل أن تستجيب للتحديات الخارجية ، ومن ثم فهذه الطاقات روحية الطابع أكثر منها مادية •

وبجانب هذا يقاس النمو الحضارى للمجتمع بالترابط الذاتى ، ويعنى به توينبى ترابط أفراد المجتمع بعضهم ببعض ، وذلك لا يتم الا بالتسامى•

والدين عنده هو الذى يحدد علاقات البشر بعضهم ببعض ويرسمها لهم على أسس العدالة والحق والمساواة ، ولا تفعل التكنولوجيا والعلوم الكونية ذلك[١] .

وبناء على ما تقدم ، فان عملية التسامى وتقوية الترابط الاجتماعى مع وجود التقدم (التكنولوجى) كلها تمنع انهيار المجتمع وتحلله . ومن ثم فهو يقرر صراحة بأن المجتمع الذى يضحى بالدين فى سبيل العلم والتقنية مجتمع فاسد ومدمر لنفسه ، وذلك لان العلم والتقنية والتقدم الصناعى ، أقل أهمية بكثير من علاقة الانسان بربه وباخوانه من البشر ، وهذه الاخيرة هى فى الحقيقة المحور الرئيسى فى الحضارة . يقول توينبى (ان الكائن البشرى الذى يكسر فى هذه الحياة قيود الزمان والفضاء بالدخول فى اتصال مباشر مع الله ، لهو شخص قد يدل حاله — ان أصبح الاتصال لديه عادة سائدة — من متوحش الى قديس[٢] .

ومن ثم — وبسبب انصراف أكثر الناس فى الغرب عن الدين — يثبت توينبى وعلى كره منه وبأس مرير — الواقع المؤلم الذى انتهت اليه الحضارة الغربية المعاصرة والمتمثل فى تنحية الدين جانبا عن واقع الحياة ، وقد أثبت هذا بقوله (ان المعركة الروحية الحاسمة التى جابهت رجل الغرب لم تنشب على الصعيد الحربى ، ولا على الصعيد الاجتماعى ، أو الاقتصادى لكن ميدان المعركة الحاسمة وقتئذ كان حول موضوع الدين)[١] .

---

(١) هكذا يقرر توينبى فى موسوعة (دراسة للتاريخ) وهو يعنى بالدين هنا الدين المسيحى بالنسبة للحضارة الغربية المسيحية والدين الاسلامى بالنسبة للحضارة الاسلامية والبوذى للحضارة البوذية وهكذا .

(٢) توينبى — دراسة للتاريخ جـ٧ ص ٥١٤ .

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص١٦٨ .

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص١٦٨ .

ويرى توينبى أن الدين بالنسبة للمجتمع أو الحضارة كصاحب البيت الشرعى بالنسبة للبيت ، فاذا غاب عنه أو طرد منه أو هجره ، فانه — أى البيت — يصبح مسكنا للشياطين واللصوص والعناكب ، وينتهى الحال به الى الخراب ما لم يرجع اليه صاحبه الشرعى • وهـذا ما حـدث بالنسبة للحضارة الغربية ومجتمعاتها بعد هزيمة الدين فى المعركة الحاسمـة التى ذكرها آنفا مما جعله يتساءل فى مـرارة ويأس (والى متى تظل نفـوس الناس فى الغرب ، محتملة مواصلة العيش بدون عقيدة دينية ؟• واذا كانت نفوس الناس فى الغرب قد استبد بها قلق الفراغ الروحى ففتحت الباب لدخول شياطين مثل : القومية والفاشية والشيوعية ، فالى متى يظل ايمانها — الذى كسبه أخيرا بالتسامح — صامدا للتجربة ؟)[٢] •

وهكذا يرى المؤرخ الانجليزى الشهير ضرورة قيام الحضارة الحقة على الدين مع العلم والتقنية • ويشهد أيضا على انهيار الحضارة الغربية بسبب استغنائها عن الدين •

وحسب نظرية توينبى فى تفسير التاريخ وتعليله لانتهاء الحضـارات فانه يرى أن مرحلة الانهيار هى المرحـلة التى تسبق مـوت الحضـارات وفنائها • ولذلك فهو لم يفقد الامل بعد فى انقاذ الحضارة الغربية والعمل على منعها من الوصول الى مرحلة الفناء والموت •

وهو يتلمس هذا الامل فى عوامل مناهضة للتحلل متمثلة فى (التأثير المستمر لروح مسيحية لم تفقد سيطرتها — بعـد — على قـلوب الرجال والنساء فى الغرب)[١] ، الا أنه يعود فيضع احتمالا قويا لانقطاع هـذا

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص١٦٨ .
(١) المصدر السابق ج٤ ص ١٧٩ .

التأثير بعزوف الناس عن المسيحية وانصرافهم المتزايد عنها بفعل ما أصابها من تحريف وما دخل عليها من وثنية نتيجة مزجها بالفلسفة اليونانية ، يقول (وذلك رغما عن أن عقولهم قد تعرض عن العقيدة التى ترجمت فيها حقائق المسيحية الثابتة الى اللغة الغانية ، لغة الفلسفة الهلينية الوثنية)(٢)* .

ومن ثم ينتهى توينبى — حيال بحثه عن المصير النهائى للحضارة الغربية — بقوله (الشهادة المستخلصة من الاحداث السابقة فى المجتمع الغربى لا تعتبر حاسمة فى ايضاح مستقبل الحضارة الغربية)(١) .

ومعنى هذا أن الطبيب المعالج لم يستطع القطع بشفاء المريض كما لم يستطع أن يقرر اجتيازه مرحلة الخطر ونجاته من الموت .

والاستغناء عن الدين — حسب نظرية توينبى فى تحلل الحضارات — هو العامل الرئيسى فى فناء الحضارة ولكنه ليس العامل الوحيد حيث يثبت — بجانب هذا العامل الرئيسى — عدة عوامل مساعدة بعضها داخلى وبعضها من خارج المجتمع ، وهذه العوامل من شأنها — اذا وجدت — أن تعجل بفناء المجتمع وتحلله أى أنها تساعد أو تؤدى الى انتقاله من مرحلة الانهيار الى مرحلة الفناء .

ولكن اذا لم تكن هذه العوامل كافية وحاسمة ، وكانت استجابة

(*) نعمة الله العظمى على المسلمين هى أن كتابهم وسنة نبيهم محفوظان. وذلك يعنى — حسب نظرية توينبى فى فناء الحضارات — استحالة وصول المجتمع الاسلامى الى مرحلة الفناء والتحلل باعتبار أن الدين هو العامل الحاسم فى بقاء الحضارة عنده ، وما دامت أصول الاسلام الالهية محفوظة فلا مناص مع الزمن من عودة الحضارة الاسلامية الى سيادة الارض والعالم مرة أخرى .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ١٧٩ .

المجتمع لتحدى هذه العوامل المساعدة ناجحة ، فان هذا يمكن أن يؤجل من ســـاعة النهاية •

وتتمثل هذه العوامل فى بروليتاريا خارجة وبروليتاريا داخلية تتربص بالمجتمع الدوائر للقضاء عليه •

ومعنى البروليتاريا عنده بخلاف المعنى الذى يفهمه المـــاركسيون • حيث أنها عند توينبى فئات تعيش داخل المجتمـــع وليست من جنسه وان كانت جزءا منه • وتتمثل البرولوتاريا الداخلية بالنسبة للمجتمعات الغربية فى الافارقة السود والاسيويين الذين استوطنوا هذه المجتمعات وهم — من ثم يعاملون معاملة أقل فى الحقوق من أصحاب المجتمع الاصليين أى البيض من أصل أوربى •

أما البرولوتاريا الخارجية التى تشكل فى رأيه الخطر الحقيـــقى على الحضارة الغربية فتتمثل فى ثلاثة مجتمعات محيطة بها هى :

المجتمع الصينى والهندى من ناحية •

والمجتمع أو الحضارة الاسلامية من ناحية أخرى •

ويستبعد توينبى أن تكون روسيا الشيوعية أو الاتحاد الســـوفييتى مصدرا للخطر بل انه يتوقع أن تقوم روسيا بدور الحاجز والحامى للمجتمع الغربى ضد الخطر الداهم الذى يتوقعه من الصين والهند أو من المسلمين •

وهو يعلل توقعه هذا بعاملين :

الاول : هو القومية الروسية التى تنتمى بدورها الى جنس الرجـــل الابيض وهو الجنس الجامع لشعوب الحضارة الغربية المعاصرة ، وبنـــاء على هذا العامل توقع توينبى حدوث خلاف يصل الى حد العداء والصراع

بين روسيا والصين الشيوعيـــة بسبب اختـــلاف اللون والجنس حيث أن الايدلوجية المـــاركسية لا تصلح كعامل توحيد بين جنسين مختلفين[١] .

والثانى : تاريخى ، حيث قامت الدولة البيزنطية بدور الحاجز والحامى أثناء دفاعها عن نفسها ضد الفتح الاسلامى ، فـــدافعت بالتالى عن أوربا الغربية .

ومن ثم فهو يرى أن الامل معقود على روسيا فى الدفاع عن الحضارة الغربية وحمايتها من الصين والهند .

أما الخطر الخارجى الذى يتهدد الحضارة الغربية والذى أشار توينبى الى المواضع التى يتوقع ، بل ويحذر ، أنه سيأتى منها فهو كما قلنا :

١ ــ الصين والهند ، أحدهما أو كلاهما اذا ...

٢ ــ منطقة جنوب غربى آسيا (أى شبه جزيرة العرب) اذا ..

وقوله « اذا » الشرطية فى تقرير ورود الخطر الخارجى الذى سيؤدى الى تحلل الحضارة الغربية وفنائها يعنى أنه يعلق حدوث هذا الخطر عـــلى شرط بالنسبة لمجيئه من الصين أو الهند أو كلاهما وعلى شرط آخر بالنسبة لمجيئه من بلاد العرب ومهد الاسلام .

يقول توينبى عن الشرط المتعلق عليه ورود الخطر من الصين والهنـــد

---

(١) كتب توينبى هذا التوقع قبل حدوث الخـــلاف والصراع الحـــالى بين الصين وروسيا الشيوعيتين وسيتبين لنا بعد قليل أن هذا كان نتيجـــة تخطيط من الغرب بناء على توجيه وتحذير توينبى ، وليس توقعا كما يزعم ، والله أعلم.

(فاذا أتيح لاحدى هاتين الدولتين أو كلتاهما معا « وكل أشبه بالقارة ويضم حوالى ربع الجنس البشرى تقريبا » أن تصلا بعملية اقتباس النظم الغربية الادارية والتكنولوجية الى المدى الذى تصبح عنده القوة البشرية العاملة الهندية أو الصينية ، يحسب حسابها فى ميزان القوى العالمية الحربية والسياسية وفقا لنسبتها العددية وحدها ، هذا ينتظر أن يصر مثل هذا الجبار العاتى المكين ، على اجراء تعديل تام فى توزيع أراضى العالم وفى توزيع ثرواته ، وهو توزيع لا يزال مجافيا للعدالة)[١] .

ويقول عن شرط ورود الخطر الثانى المتوقع مجيئه من بلاد العرب أو من جنوب غربى آسيا ، أنه قد سبق وأن هدد الغرب من قبل ، ويؤكد هنا دور روسيا فى الدفاع عن الغرب ضد هذا الخطر كما سبق ايضاح ذلك فيقول مقررا تنبؤا فى المستقبل بناء على أحداث سابقة (وقد سبق أن قامت الكتلة الرئيسية للعالم المسيحى الارثوذكسى[٢] بتأدية هذا الدور لهذا العالم الغربى نفسه ، ولم يأت الخطر وقتذاك من الهند أو الصين ، لكنه جاء من جنوب غربى أسيا ، بعد أن توحدت تحت قيادة ديناميكية فنية هى: قوة العروبة والاسلام)[١] .

وهذا يعنى أن الخطر المهدد للحضارة الغربية من العرب ليس فى قوتهم العددية أو فى أخذهم بأساليب الادارة والانتاج الغربية ، ولكن فى عودة العرب (تحت قيادة قوة ديناميكية فنية هى : قوة العروبة والاسلام).

ويمكن بناء على ما سبق أن نستنبط النتائج الآتية :

أولا : أن روسيا لا زالت — رغم الاختلاف الايديولوجى بينها وبين

(١ج مختصر دراسة للتاريخ ص ١٧٥ .
(٢) يعنى روسيا .
(١) نفس المصدر والصفحة .

والغرب — أملا للاوربيين فى الدفاع عنهم ضد خطر الجنس الاصفر ، باعتبار أن الروس من الجنس الابيض الذى ينتمى اليه الاوربيون ، وباعتبار أنها حاجز طبيعى بين الصين والهند وبين أوربا فانها حينما تدافع عن نفسها أولا ضد الخطر الاصفر ، فانها فى نفس الوقت تسدى الى الغرب منة درء هذا الخطر عنه يقول توينبى (عندئذ قد تجد روسيا نفسها — وهى تكافح لصيانة كيانها نفسه مسوقة دون ارادتها لتسدى للعالم الغربى الذى يقف متراضيا محتميا وراء أسوارها ، تسدى اليه منة قيامها بدور الدولة الحاجزة • وهى منة لا يتوقع لها من الغرب جزاء ولا شكورا)[٢] •

ومعنى ذلك — فى رأى توينبى أن عامل الجنس أو اللون — وهو عامل أقل أهمية فى قيام المجتمعات والحضارات — يمكن أن يتغلب آنذاك على الاختلاف الايديولوجى القائم الآن • فالقومية اذا فىنظر توينبى أقوى كعامل تاريخى من الشيوعية كأيديولوجية أو من أى أيديولوجية مادية أخرى وتثبت لنا هذه النتيجة وتتضح أكثر اذا تذكرنا كلامه عن الدين باعتباره العامل الرئيسى الاول فى قيام الحضارات وانهيارها بانهياره ، وهذا يؤكد أن ما يقصده توينبى بالدين هو الدين بالمعنى والمفهوم السماوى أو التقليدى ولا يدخل فيه الايديولوجيات الفلسفية الوصفية كالماركسية •

ثانيا : أنه يرى فى روسيا أملا للرجل الابيض ضد خطر الرجل الاصفر لسببين الاول : أنها متاخمة للهند والصين من ناحية ، ولان شعوبها تتوالد بمعدل أعلى من تكاثر وتوالد الاوربيين ، ومعنى ذلك أن الكثرة العددية

---

(٢) نفس المصدر والصفحة .

للبشر لها حسابها فى ميزان القوى الدولية والصراع الحضارى ، وذلك على الاقل فى مواجهة خطر الكثرة العددية فى الصين والهند •

ثالثا : ان كثرة الصينيين والهنود الحالية ليس لها حساب فى ميزان القوى الدوليـــة ، ما لم يتمكن قادة هـــذين البلدين من تنظيمهـــا اداريا وتكنولوجيا بحيث يمكن استغلالها الى أقصى حد أو بالمعـــدل الذى تستغل فيه القوى البشرية فى الحضارة الغربية •

وهذا تحذير صريح واضح من توينبى الى مخططى السياسة الغربية والبريطانية من نجاح الصين أو الهند احداهما أو كلتاهما من الوصول الى تطبيق النظم الغربية فى الادارة والانتاج تلك التى من شـــأنها اســـتغلال القوى البشرية على أفضل وجه ممكن ، مما يكون نتيجته قيام هذين الماردين بعمليات توسع عسكرية واقتصادية يعيدون بها توزيـــع خـــريطة الارض جغرافيا واقتصاديا وسياسيا •

فاذا عدنا الى أحداث الصين ابان استقلالها عن بريطانيا تبين لنا أن الاسباب الخفية التى أدت الى انتصار الشيوعيين بقيادة ماوتسى تونج على أصحاب الاتجاه الرأسمالى كانت بفضل المستعمر الغـــربى ، لقـــد خطط البريطانيون لكى تصبح معظم الصين شيوعية حتى يبعد الشعب الصينى عن أساليب وأنظمة الانتاج الغربى الرأسمالى • وبذلك ينجو الغرب • من هذا المـــارد العاتى المكين باخضاع المـــارد للنظام الشيوعى المدمر للانتاج والمكبل لفاعلية هذا المـــارد والمانع لها من الانطلاق كما حدث لفاعلية الشعب اليابانى الذى استطاع أن يحرج العالم الغربى كله تجـــاريا واقتصـــاديا بالرغم من أنه لا يصل عدده الا الى معشار عدد الشعب الصينى وبالرغم من خلو أرضه من المواد الخام التى يستخدمها فى صناعته وبالرغم من أنه

من الجنس الأصفر الذى ينتمى اليه الشعب الصينى وبالرغم من أنه بدأ نهضته الصناعية فى نفس الوقت الذى استقلت فيه الصين ومع ذلك كله فانتاج الصين لا يصل معشار انتاج اليابان •

كل هذا يجعلنا نرجح أن وجود النظام الشيوعى فى الصين هو من تخطيط وتنفيذ الغرب بعامة وانجلترا بخاصة ، وأن أمريكا هى — باعتبارها وريثة بريطانيا بخاصة والغرب بعامة فى مخططاتها حيال موازين القوى فى العالم لانها أصبحت تمثل — على حد تعبير توينبى — الدولة العالمية فى الحضارة الغربية المعاصرة ، نقول : ان أمريكا بهذا الاعتبار هى الحريصة على بقاء الصين شيوعية •

ولا شك أن الكثير سوف يستغربون هذا القول ، لما يبدو من عداء بين الرأسمالية والشيوعية •

ولكن اذا تذكرنا تحذيرات توينبى وتشخيصه لمكامن الخطر فى الصين والهند وتهوينه من خطر روسيا الشيوعية على الغرب ثم ما حدث من خلاف وصراع وحروب بين الدولتين الشيوعتين روسيا والصين واستمرار هذا الخلاف حتى الآن اذا تذكرنا ذلك كله علمنا أن سياسة الغرب حيال العالم الشيوعى هى ابقاؤه شيوعيا لما فى ذلك من عامل حاسم لاخراج هذا الجزء من العالم من منافسته اقتصاديا أما من حيث الصراع العسكرى وميزان القوى فان صراعهما وخلافهما تخفيف عن كاهل الغرب عسكريا اذ يمكن أن يكفى أحدهما الغرب فى صراعه ضد الآخر •

رابعا : يفرد توينبى لروسيا فضل الدفاع فيما سبق عن الرجل الابيض ضد الغزو الاسلامى ويعتبر العرب خطرا عليهم اذا عادت اليهم القيادة الاسلامية التى يصفها بأنها (قوة ديناميكية فتية) واذا كانت

تحذيرات توينبى للغربين لحماية ووقاية حضارتهم من خطر الرجل الابيض أدت الى شيوعيـــة الصين وامداد الهند بقـــدر محـــدود من التكنولوجيا ووسائل التقدم المدنى ، فماذا كانت مخططات أهل الغرب بناء على نصائح توينبى لحماية ووقاية حضارتهم من خطر العروبة والاسلام ؟.

ان تحـــديد مكمن الخطـــر فى تولى المســلمين المخلصـــين أو « المتحمسين »[١] ــ على حد تسمية توينبى نفســـه ــ قيـــادة المجتمعات العربية والاســـلامية يعنى أن المخططات يجب أن تقـــوم على أســـاس استراتيجية واحدة وثابتة وهى العمل على الحيلولة بين العناصر الاسلامية المخلصة وبين الوصول الى مراكز التوجيه والقيادة لهـــذه الامة . وهـــذا ما سجله توينبى صرحة ، أو بتعبير يقرب الى حد كاف للصراحة حين يقول معقبا على التحذير من خطر الاسلام اذا عادت القـــوة الديناميكية الفتية لقيادة العالم الاسلامى (ان هذه التنبؤات المتصورة الى أبعـــد حـــدود التصور تمت بكليتها الى مستقبل لم تتضح معالمه للناظرين بعد)[٢] .

وفى تعبيره (المتصورة الى أبعد حدود التصور) تأكيد لمـــا يتنبأ به من خطر الاسلام على الحضارة الغربية كعامل خارجى حاسم فى فنائها .

ولكنه يعود فيغلف نصيحته لساسة الغرب وبريطانيا بالذات وسائر البلاد الاستعمارية وبخاصة التى تستعمر بلادا اسلامية وعربية يغلفها بما يشجعهم على الاخذ بها باعتبارها الامل الوحيد أمامهم فى التخلص من هذا الخطر فيقول (ولعل ثمة ما يبعث على الامل فى أن الجماعة الغـــربية التى اصطدمت بالصينيين بعنف فى كوريا واشتركت فى صراع يائس فى الهنـــد الصينية ، قد توصلت فى اتفاق مع الاندونيسيين غداة تحررهم من حـــكم

---

(١) راجع الاسلام والغرب والمستقبل لارنولد توينبى .
(٢) نفس المصـــدر ج٤ ص ١٧٣ .

اليابنيين ، وتنازلت مختارة عن سلطانها الى أهالى الفلبين وسيلان وبورما والهند وباكستان)[١] .

فما هو هذا الاتفاق مع الاندونيسيين وسائر البلاد التى لا تخلو من أقليات اسلامية مؤثرة ، والذى يعتبر فى نظر توينبى أملا فى التخلص من خطر عودة المسلمين الى الاسلام ، سوى أن يكون اعطاء هذه الشعوب استقلالها بعد تسليم السلطة لعناصر معادية للاسلام وبعد تأسيس نظم الحكم فى هذه البلاد على أصول وقواعد وفئات غير اسلامية : يؤكد هذا قوله بعد ذلك (وان عملية المصالحة التى تمت فى قارة آسيا — ممثلة فى جماعات مختلفة كانت خاضعة للسلطان البريطانى — وبين المجتمع الغربى — ممثل فى القادة البريطانيين — ان هذه العملية ، قد فتحت باب الامل بأن جماعة — على الاقل — من الحشد الاسيوى الضخم فى البروليتاريا الغربية الداخلية الواسعة النطاق التى تسعى قدما الى الانفصال عن الاقلية الغربية المسيطرة ، ان ثمة أملا بأن هذه الجماعة قد تحول طريقها وتتجه الى هدف آخر يقوم على المشاركة على قدم المساواة مع السادة الغربيين السابقين .

وقد يحدث نفس الشىء فى أقطار العالم الاسلامى فى أسيا وشمال أفريقيا ، ولمعظم الاقطار الافريقية جنوب الصحراء)[١] .

وهذا يعنى أن استراتيجية البلاد الاستعمارية ابان ترك البلاد الاسلامية المستعمرة فى آسيا وأفريقيا تتمثل فى عدم ترك هذه البلاد الا بعد التأكد من تنحية العناصر الاسلامية المخلصة والتأكد من أن العناصر التى سترث السلطة منها هم من الموالين للحضارة الغربية قلبا وقالبا بل والذين

---

(١) نفس المصدر والصفحة .
(١) نفس المصدر جـ٤ ص ١٧٦ .

عندهم الاستعداد الخلقى لاستخدام أبشع أنواع الاستبداد والتعذيب والوحشية ضد الفئات الاسلامية المخلصة والمجاهدة •

وهذا ما أكدته الاحداث التالية لجلاء المستعمرين عن البلاد الاسلامية كما يؤكد هذه الحقيقة التاريخية استمرار خضوع الاحداث فى العالم الاسلامى لهذه الاستراتيجية حتى الآن •

ولا شك أن الغرب حتى الآن قد نجح فى العمل على القضاء على ما وصفه توينبى بمكامن الخطر بالنسبة لحضارته ، أى فى العمل على منع واحباط أى محاولة لايقاظ القوة الفتية الديناميكية وتمكينها من القيادة حتى لا تعود بالعرب والمسلمين الى القوة التى تمكنهم من افناء الحضارة الغربية وانتصار الحضارة الاسلامية فى حلبة الصراع الحضارى وقيادة الاسلام وتوجيهه لاحداث التاريخ البشرى مرة أخرى •

ولا شك أيضا أن ما أسماه توينبى بعملية المصالحة والاتفاق (وقد كان موظفا بدائرة الاستخبارات الانجليزية ثم مستشارا لوزارة الخارجية البريطانية) انما هو تفسير لما نراه الآن من أحداث فى العالم العربى والاسلامى ترمى الى وأد حركات الاصلاح الاسلامية الخالصة والى الضرب بشدة على أيدى الدعاة الى الله والمجاهدين فى سبيله للعودة بالامة الى منهج الحياة الاسلامية •

ولا شك أن الاحداث التى عاشتها الامة الاسلامية بمجتمعاتها ذات الانظمة المختلفة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الآن لتدل دلالة يقينية وقاطعة على استمرار الحرب القديمة ضد الاسلام وأهله والدعاة اليه من خارج المجتمع الاسلامى ولكن يربائب داخليين ينتمون الى هذه المجتمعات فى الاصل والنشأة •

www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

وبالرغم من أن الاتفاق قد تضمن أن يتعامل السادة السابقون مع مستعمراتهم السابقة « على قدم المساواة » على حد تعبيره الا أن خبث الصليبية والاستعمار التى يمثلها توينبى أصدق تمثيل ضمنت خضوع المستعمرات خضوعا تاما وذليلا لسادتهم السابقين وذلك بضمانهم حرب « المقلدين » (وهذه هى تسمية توينبى للموالين للحضارة الغربية) للاسلام والداعين اليه ، وذلك لان الاسلام هو المقوم الاول والاساس لهذه المجتمعات كما قال توينبى نفسه •

فالحقيقة التى لا شك فيها أن الغرب قد ضمن ، بتنحية الاسلام عن واقع الحياة فى المجتمعات الاسلامية ، استمرار سيادته على الشعوب الاسلامية ، ولو بصفة مؤقتة لان سلب روح الحضارة الاسلامية المتمثلة فى الاسلام من هذه المجتمعات تلقائيا التخلص من فاعلية هذه الحضارة فى الصراع •

وهذا يفسر لنا أيضا حرص الغرب على استمرار تغريب الشعوب الاسلامية والحاحه فى تغريب التى لم يشملها التغريب بعد ، المدن منها والقرى والبادية على حد سواء • حتى يمكن القول أن استمرار التغريب والقضاء على الدعوة الاسلامية فى مهدها تجعلان فى استراتيجيتهم المقام الاول فى التعامل مع المسلمين •

ولا يخفى توينبى هذا بل انه يسجله ويباركه ويصف المستجيبين والمقلدين وخدام الحضارة الغربية — ولو على حساب الاسلام — من أبناء المسلمين بالتفهم والتعقل • ويصف فى المقابل المناوئين لحركة التغريب والداعين الى التمسك بدينهم وتراثهم وذاتيتهم الحضارية بالرجعيين ،

وهو يبدى قلقه الشديد من الاجيال الاسلامية الحديثة التى نشأت فى أحضان النظام الغربى والدول العلمانية ، وبالرغم من ذلك فقد ظهر منهم المتحمسون للاسلام كمنهاج للحياة وسبيل للحضارة .

ويصف توينبى حركة التغريب التركية بالنجاح الباهر حيث بلغ المقلدون فيها شأوا فى التغريب لم يبلغه قطر اسلامى آخر . حتى يقول عنهم (ولم يكتف الاتراك بتغيير دستورهم ، وهو شىء سهل نسبيا فى مجال الاصلاح الدستورى ، بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الاسلامى ، الخليفة ، وألغت منصبه — أى الخلافة — وجردت رجال الدين المسلمين وحلت منظماتهم وأزالت الحجاب عن رأس المرأة واستنكرت كل ما يرمز اليه الحجاب وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات التى تمنع لابسها من أداء شعائر الصلاة الاسلامية التقليدية وبخاصة فى السجود وكنست الشريعة الاسلامية بأكملها وتبنت القانون المدنى السويسرى بعد أن ترجمته الى التركية وطبقت قانون الجرائم الايطالى وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما فى المجلس الوطنى ، وغيرت الاحرف العربية بأحرف لاتينية ، وهذا أمر لا يتم الا بطرح القسم الاكبر من التراث الادبى العثمانى القديم)[1] .

ويعتبر ما حدث فى تركيا نموذجا ناجحا لهدم المفهوم الاول فى الحضارة الاسلامية وهو الاسلام ومن ثم حاول الغرب تطبيقه على سائر المجتمعات الاسلامية الاخرى ، وقد نجح فى ذلك نجاحا متفاوتا من مجتمع الى آخر ، لكنه كان على أى حال نجاحا تاما بالنسبة لتغيير البنية الفوقية للمجتمع الاسلامى ، لكنه لم يستطع ، حتى فى تركيا ، القضاء على الاسلام تماما فى البنية التحتية أو فى الطبقات المحكومة فى الشعوب الاسلامية .

---

(١) أرنولد توينبى — الاسلام والغرب والمستقبل ص ٥٠ .

ومع انتهاء مراحل الانهيار فى الحضارة الغربية ووصـــولها الى بدء مرحلة التحلل أو الفناء حسب تشخيص توينبى نفسه خفت قبضة الغـــرب الحاقد على رقبة المـــارد الاسلامى ، ليس بسبب انتهاء الحقـــد الصليبى ولكن بسبب ضعف القبضة ، وبذلك أفلت الاسلام من أيديهم ، وكتب له الله الاستمرار فى الصراع .

الفهـــــــرس

استخلاف الله للانسان فى الارض ٥

الخلافة عبودية وسيادة ١١

الدين والعلم مقوما الخلافة ١٤

الخلافة والتوحيـــد ١٩

الارتقاء الذاتى فى مجـــال العبـــودية والتقـــدم المـــدنى فى مجال السيادة ٣٧

الثابت والمتغير فى مختلف الخلافة ٥٣

غاية الانسان فى الحياة بين التوحيد الاسلامى وعقائد الشرك والكفر والمـــــادية ٦٣

أهداف البشرية فى ظل العقائد المـــادية ٧١

الخلافة هى الغاية المطلقـــة والابدية للوجـــود الانســـانى فى الاسلام ٨٥

الخلافة لله هى النموذج الصحيح الكامل للحضارة الانسانية ١٠١

مستقبل الحضارة الغربية المعاصرة من منظور الخلافة ، وبشهادة شـــاهد من أهلها ١١١

طبع بمطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة — اسكندرية

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين